١٩٨٨

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٥٠٩ لسنة ١٩٨٨

مطبعة مسام

حوار غير متكافئ مع الحرب

ياحرب! يابنت الشيطان الكامن في النفوس، يارشح الصديد من معدن العماية والغواية والسفه، ياعنوان المروق من القيم والشيم والذمم، يالعَنكِ الله: بؤستِ من قبح ذميم لبسته الضراوة والقساوة وتعارت عنه الرحمة بألف حجاب.

لم استشعر قط فيما أكتب غثيانا كالذي يرجّ احشائي وأنا أحرك في خبائثكِ قلمي. اذا أدّارأتُ عن وجهك الكالح وزويتُ نظري الى حيثُ الخلوُ من رجسكِ كي ألتقط هنا كلاما وألفق من هناك تعبيرا لم يلابسه ظلك الموبؤ أنفسُ به عن نفسي تشفياً منكِ على أديم النظافة والنَصَفة فاضت فيوضكِ الهوجاء الشوهاء العوراء على حسي من يومنا الراهن المشؤوم بك ومن ازمان مضت احمرت بفتكك أيامها واصفرت في لهيبكِ خضراؤها وغبراؤها، بل انبعثت صور من دواهي ماتفعلين بالناس في قابل ايامهم تطفو الى مهوى نظري من مخزونكِ الوبيل في قراراتي، فلا احتجاب ولاتوارى عنك ولاتعالى عليك فأنت مدركة وعيي ومالئة نومي وموقرة صدري وصكّاكة سمعي.. أحسّ بحديدك المذاب يسيل في دمي كلما طرقني طارق من بلواك المنداحة بانديا ح الليل والنهار فكل نغزة تنغزين بها عصبي من صوات على شهيد ونبأ بهجوم جديد وعلم بهدم أو حرق أو نكال، تهيجني على استبشاعك منذ أول اغتيال يُروى من قابيل لها بيل فما قتل أو حرقٌ أو نكالٌ كان في الماضي من آحاد لآحاد وماسيكون منه حاضراً وآتيا إلا وهو قطرة فجيعة من بحور فواجعك. وتتسع رقعة التوقع لبيات كوارثك باتساع القدرة على التنكيل في الذرية والنووية والكيميائية وذوات الأصابع المتعددة كأنها رؤوس الشياطين فتشدني الرغبة الجامحة الى مط جوانحي حتى تستوعب كرهك بكل مقاس فاذا ضاقت بها حيل الإستيعاب شحذتُ قدرتي على الأستزادة من حب السلام والوئام والأنام من باب الموازنة لزيادة بلواك وذلك أضعف الأيمان.

لقد كرهتكِ في باكورة عمري منساقاً مع طبعي الفتي في كره القتل والمحق والتهديم. وأمدني

بزيادة مقتك فرطُ استفظاعي لازهاق الروح البشرية ونزولُهُ في مقام الصدارة من الجرائم الكبرى على لوحة تصوري وكان القتل عنوان مجدك المقام على الجماجم والخرائب. وتنامي حجمك البشع في موازين رفضي على خطين متوازيين: تفاقم مصائبك المتوالية عاماً بعد عام واتساع فهمي للخير ونواقضه طورا بعد طور. وظننت اني واكبت كرهك الى منتهى الطاقة والأمكان لولا قفزة نوعية في عواطفي بميلاد أول اولادي في اليوم الخامس من عام ١٩٦٣ فزاد من خيوط الرحمة والمحبة بيني وبين الناس ورسخ جذوري بمواطن البركة والعطاء في أرض وطني ومائه وسمائه بل في الأرضين والبحور والسماوات كلها ماغدقت على الناس بالخير النظيف فكان ذلك إيذاناً بتفجير ينابيع جديدة من الفكر المعادي للحرب في وعيي وكانت التجربة المرة للتناحر الداخلي بعد ثورة تموز ١٩٥٨ واستطالتها آمادا وراء أسوأ التوقعات واشدها إيغالا في التشاؤم رفداً عظيماً لوقود جهازي الباطن الرافض للسين والحاء والقاف، رموز السحل والحرق والقتل.. وعلى قدر تجهم الافاق في وطني بالنذر أضاءت المشاعلُ في وعيي محاريبَ عبادة السلام وتقديس الأمان وتكريس الأخاء، وازداد إيماني قوةً في قطبية المتضادين: قطب التمسك باللين والتفاهم والتوادّ في مجابهة المشاكل من اي نوع كان وقطب الأدانة والتجريم والتحريم للضراوة والعتو والغلو جملةً وتفصيلاً وكنتُ قبل هذا بزمان مديد قد توصلتُ الى الأقتناع بوجود علاج هادئ لأي خلاف قد يبدو مستعصيا بين الجهات المتطرفة، ذلك ان علّة الاستعصاء ترشح، كسم الأفعى، من أنياب النفوس الضارية المستعلية المعتزة بالأثم قبل أن يجد اختلافُ المصالح محله الجديرَ به والعلاجَ المقتضى له بين المتحاورين وليست الحُجج المزجاةُ في تفسير الحروب وتسبيبها الاّ غلالة من الكلام المنمّق الذي يستمد قوته من وقوع الحروب وهي في حقيقة الأمر لم تقع الا بأسبابها الكامنة في طبائع البشر ثم يأتي التفسير بمغالطاته في رد العلة الى المصالح المغالبة لارادة الأنسان. ويتمادى اصحاب التفسير في غلوّهم حتى يساووا بين التفسير والتبرير وهما لايلتقيان الا في اندر

الأحوال من جهة المهاجم. ويرفع المفسّرون الحدودَ بين الممكن والمحتوم وهما قد يتباعدان الى إحد التعارض، فالحرب المفسرّة غير الحرب المبرّرة والحرب الممكنة غير الحرب المحتومة شأنها شأن الجريمة العادية في الفرق بين مفسرِها ومبرّرِها وبين ممكنها ومحتومها. والمطلعون على دخائل الأحداث يعرفون كم من الحروب الممكنة منعها مانع من التعقل أو التمهل وكانت دواعيها النفعية اقوى من دواعي حروب أخرى وقعت. ورب وساطة ذكية حالت دون الكارثة ووساطةٍ خرقاء شحذت الخلاف الى حد الأتقاد. هذه القناعات المستمدة من وقائع الاحداث وطبائع النفوس تأكدت على الزمن بمصاديقها من مجريات الأمور وترسخت بل استحالت الى جزء من كياني المعنوي بميلاد ولدى الثاني في ١٥ آب ١٩٦٤ وبنتي الوحيدة في أول اب ١٩٧١ : انهم نسجوا بسحرّ طفولتهم وبراءة نظراتهم وحلاوة بغامهم وقلة حيلتهم واتكالهم المطلق في وجودهم على ابويهم شبكات من خيوط الرحمة والحنان من حولي تصل مابين قلبي وبين الناس من كل جنس ودين بألف ألف حبل سري ينقل مني إليهم افضل احاسيسي وأتعشم أن يأتيني منهم بما يُطَمْئِنُني على فلذات كبدي من باب المقابلة بالمثل وهل جزاء الأحسان إلاّ الأحسان؟ فتحتُ الابواب على وسعها في وجه كل الناس قريبهم وبعيدهم، خطيرهم ويسيرهم، كبيرهم وصغيرهم فلم يجد انسان واحد في سعيه إلّى أيّ عائق مما تقيمه الوظيفة الكبيرة في طريق اصحاب الحاجة فلا استعلامات ولاشرطة بالباب ولاسكرتير ينظم المواعيد: لم أفرض على طالب رؤيتي استئذانا بالدخول، هو يدخل حجرتي كما يدخل قلبي بتمام مشيئته. ودان سبيله إلى ذلك ممهدا منذ وعيت ذاتي وتمهد اكثر واكثر بأقبال أولادي مبشرين بتجدد حياتي فيهم وامتداد وجودي عبر وجودهم الى مابعد رحيلي فكانت البشرى جديرة بالشكر عليها عن سبيل مضاعفة التحام انسانيتي بمعنى (الانسانية) المطلقة وهي تتجسد في آحاد الناس وجماعاتهم وشعوبهم، ولربمّا شفّت نفسي ورقّت في احوال وجدانية فياضة فأحسستُ بامتداد كينونتي حتى وجدتها تخفق مع ورق الشجر

وتلمع في جناح الفراشة. وما اعظمها لحظات هنيهات يتداخل فيها الشعور المرّكز بالذات مع شعور صوفي شاعري بالوجود عموماً فيجاوز الانسان نفسه بالخروج من قوقعة الفردية العازلة للتناغم مع الكون الأوسع الأبعد من أقصى أقاصيه حتى النمل الذي يدب حول أصابع القدمين. في هذه الأحوال النادرات تسقط حقارة الأنانية والحقد والدجل والميل الى الأذى في هوة العدم وتغيب عن الأحساس كأنها لم توجد قط. وتمتلئ الجوانح بالطمأنينة والرضا وتنبسط ملكوت الحق والجمال الى مدى تنقطع دونه قابلية انبساط الذات على مقاسه حتى اذا انقضت الحال ورجعت النفس الى معتاد الحياة تفشّت فيها صور كانت غائبة للظلام والظلم والتفاهة. وما ذهلتُ قط في تقلبي بين الشفافية والعتمة عن مصادر المدد الذي يغرى ذاتي بالولوج في دنيا المُثل فالمصادر متعددة بدأت في الأساس بواحدٍ هو الطبع ثم توزعت على صنوف الكسب. وحظ أبنائي حظ كبير فيما هو طبعيٌ فقد اضافوا الى طبعي الواحد طباعا ثلاثة على قدر عددهم. ولايمكن اعتبار احساسي المتولد بولادتهم احساساً مكتسباً فما هو بالشيْ الذي يتعلمه الأنسان بالتلقين والتعويد وهل بأحدٍ حاجة أن يتعلم حب نفسه في اولاده؟ وممن تعلم العصفور حب صغاره؟ ومن تحصيل الحاصل القول ان الشرف الأول والأجلّ للأبوّة هو تحقيق مقتضاها من زيادة الأيمان بمطلق الرحمة ومضاعفة الكره لمطلق العدوان فلا فخر في قصر الأب حنانه على ولده ولامباهاةَ في دفع الاذى عنه دون العالمين فالأب بذلك يبقى جنديّ نفسه وحارسَ روحه، وماكنت من هذا في شيْ فقد سوّلت لى الأبوةُ أن احبّ بأربعة قلوب وأن اكره بأربعة قلوب فكرهت الحرب كما لايستطيع كرهها الا من ينبض بأربعة قلوب. أصبحت الضراوة والقساوة تؤذيني في مشاعري بضخامة الدويّ المتضاعف في مكبرات الصوت من اربع جهات. وظللت متساوق الضمير مع هذه المعادلة الرباعية في جانبيها المحب والكاره استبين فيها خيطا مضيئاً بالرواء والأشراق وسط خيوط غير قليلة من حبكة الحياة تفاوتت ألوانها ميالةً الى السواد. وربّ

مَشاربَ مُرةٍ ساغت في مذاق الأبوة الحالية بأبنائها فلقد كان ذلك شأني في تعاملي مع ماتسوقه الأيام الحبالي بما لاتسر. وتوالت الأعوام بميزانها المائل من تفاوت أثقال كفتيه نعمةً ونقمة حتى أطل عام ١٩٨٥ وفي غضون تكشيرته ملامح بسمة توضحت خطوطها يوما بعد يوم وتراقصت أطيافها شهرا بعد شهر، فاذا أوشك الصبح ان يتنفس في ختام الليل السابع والعشرين من ايلول أهلّ العيد الرائع في قلبي وبيتي بميلاد حفيدي من ولدي البكر فجاء:

آمد دَوَن مسعود. أصبحتُ به (مثلث الرحمة) مخمس القلب منداح الوجدان على مساحات فسيحة من مكامن الرحمة والمحبة وانفتحت لبصيرتي منافذ جمة تشرف على معاني الحق والجمال فقد كان مما يبهر الروح أن أعيش في (آمد) بالجزء الباقي من عمري تباشيرَ جيل من البشر يَستأنفُ اكتشافَ دواعي النضج الانساني في كل الوجهات فهو وكيلي من بعدي في بناء جسور التواصل بين الناس ودحض المزاعم الشريرة في لصوق الخبث بالطبائع حتى يوصم المثابر على العدوان بالشذوذ والمروق والعقوق. كان ميلاده تقليباً لثرى حديقة الورد في دمي وعصبي تفجرتْ به ألوانها وأدهامّتْ اوراقها وأغصانها وارتوت جذورها وتيجانها فهو منذ ستة أشهر إلا يومين لحين انسياب القلم بهذه السطور يرسمُ بين رموشي اقواسَ القزح ويعزف في سمعي ألحان السماء ويعبثُ راجعاً بي الى مثل عمره فأرضع مجددا حب الناس من بسماته ونظراته فيا لحيرة فهمي في لغز الوجود: ماأعظم هذا الصغير!

لقد استأنفتُ في مجيئه كراهة الحرب والعدوان بألف ألف فؤاد ولعنتُها ولعنتُ الداعين إليها والمصرّين عليها بألف ألف لسان. صرت أعيذ كلّ الأطفال بالرحمة الأزلية من أذى أبغض الحرام الذي جمع في حانه ورائه وبائه كل شر متصوّر ومتوهّم فليس في قدرة العبقري أن يخترع شراً خارج مضمون الحرب.

فانا اكرهها لشرها المنظور ولشرها المستور ولشرها المفهوم والموهوم الذي لايخطر على

الاذهان بل انها استأثرت بمقتي حتى انقلب في بعض وجوهه على سوانحَ يفرحُ فيها الناس فأماتها في شغافي فقد تسربت منها الظُلَمُ والنِقَم الى كل شيء متصل بها فذهبت بأشراقِهِ ونالت من حسنِهِ وإحسانِهِ فتشوهت في رأيي ورؤيتي صورة النصر في الحرب المدافعة ذلك أن نصفَها الأمثَل والأكرمَ غارق في الدم والنار والبوار ويبسمُ نصفُها الخارجُ من الجحيم بثلثِ الفمِ وربع العين ولهاثٍ يتقطعُ به النفَس: لن أنسى ولا أظن الناس ينسون أن حصاد الموت ليس محتوماً كتعاقب الفصول كي يأتي السلوان والضحك والتراقص في اعقابه كانبلاج البسمة في أفراح العرس ومهرجانات الربيع. والراقصُ في المأتم ما كان يرقص لو كان المأتم مقاماً في ذكراه ولا كان يرقص بمزاج رائق اذا كان فرح النصر يُهدي الفواتح الى روح ولده الشهيد.. ان الحزانى يلطمن في حلقات الراقصين ورُبّ مزهوّ بنفسه رقص بين النائحات. والبشريةُ كُلُها تخطيء الحسابَ اذا رجّحتْ دواعي الزهو على موحيات الحزن في اعقاب الحروب، وبمقدار مايقتصد الناس من هز الأوساط والأعجاز في أعقاب الحروب يكونون قد احتفظوا بمخزون من كراهية الحرب يمنعون أو يُرجئون به انفجار حرب أخرى. ومن الصور الغريبة في تفاوت مقدار الإبتهاج بانكسار المعتدي من حال الى حال مارأيناه من قلة اعتناء الشعب الفرنسي بانتصار الحلفاء في الحرب الثانية بقياسه الى الفرحة الغامرة التي استقبل بها نهايةَ الحرب الأولى فالعاملُ النفسي المتمثلُ في اعتبار النصر في الحرب الثانية نصرا غير فرنسي كان كفيلاً بنسيانه الفرق الهائل بين فداحة ضحاياه في الحرب الأولى وقلتها في الثانية، ولو كنت فرنسياً لفرحت في الثانية بأكثر من فرحي في الأولى بسبب قلة الدم الفرنسي المسفوك فيها. ولقد أثبتت الأيام ان الانسان الفرنسي بعد الحرب الثانية أزهى بوجوده وأوثق من نفسه ومستند الى اقتصاد اقوى ومركز دولي أرسخ.

رب قائل يقول ان البديهة تحكم بشرعية الفرح الغامر في الختام المنتصر للحرب العادلة وانه مما تحكم به طبيعة الأشياء ان يكون زهو الأنسان بنصر هو صانعه أعمق واكبر من نصر صنعه

صديقه. فأقول إني بسبب وضوح هذه البديهيات والطبائع ازيد من تمسكي بشكم جماح الفرحة المهووسة في هذه الأحوال ذلك ان النفوس التي دفعها الطبع والبديهة الى الفخر بنصرها العادل هي ذاتها التي تندفع بالطبع والبديهة الى الازدهاء بنصرها الظالم فلا الشعب الفرنسي رفض قهر سوريا والهند الصينية بعد الحرب الأولى ولا الشعب السوفياتي ابى على نفسه انتهاز هزيمة اليابان بسلخ جزيرة سخالين منها أو فرض الهيمنة الروسية على اوربا الشرقية كلها بعد الحرب الثانية. ومن الكوارث الكبيرة غير الواضحة للعيون ان غالبية الناس تعمى بصيرتها عن تداخل النصر الظالم والعادل والتباس الحق فيهما بالباطل. إنها طيّعة سهلة القياد لابتلاع التبرير في اي أمر يريحها بسهولة ولا يمتدُّ احساسها الى اعماق الجرعة اللذيذة لتجد السّمَ في دسمها فما من حرب تقعُ إلا وهي تحمل اثنين من مياسم الشيطان: فهي تقع يصحبها استخفاف مهلك بكوارث الحروب الماضية ولولا ذلك لما هان استئناف حروب تالية. وهي تقع لان كل جهة تطلبها تطمعُ في الانتصار وتعويض الخسائر.

(وتستثنى من هذه الأحكام حرب مفروضة لامهرب منها). جماهير الولايات المتحدة لم تحرك ساكنا اول ماتدخلت حكومتها في فيتنام فلما طال أمدها وتفاقمت مخاطرها دون ان تظهر لها خاتمة ملحوظة نشطت، اجزل الله ثوابها، الى التظاهر والغضب والأحتجاج، ثم انها ركبها المزاج فصفقت بحرارة لسقوط نيكسون، حلال مشكلة فيتنام. ومالبثت فيتنام نفسها عندما لاح الأمكان ان احتلت كمبوجية بحجج سقطت كلها في وقت قصير وبقي الاحتلال نموذجا لأي احتلال آخر كان يقع وسوف يقع من القوى للضعيف.

لقد ندر بين الناس من أدرك الخط الفاصل بين الحرب العادلة والظالمة الا اذا كانت مشتجرة بين جهتين اجنبيتين عنه فيحكم على الظالم بظلمه. ورب مدرك كامل الوعي لمدى الظلم والعدل القابع في جحيم حرب هو طرف فيها تناسي ادراكهُ ووعيهُ لصعوبة الموقف في هذه

الأحوال ووجود خطورة في إرخاء اي خيط يشدد قبضة صاحبه على مصير المعركة بالغاً مابلغ داعي الرحمة والعدل في ذلك الارخاء فالخصمُ في الخندق المقابل خليق ان يهتبل سانحة الارخاء ليزيد من فتل خيوطه. ومن عجيب الصدف ان تأتي النصيحة بتشديد الخناق من داع الى السلام فان شاعرا عراقيا كبيرا دعا عبد الكريم قاسم في بيته التالي بقوله:

فضيّقِ الحبلَ واشددْ من خناقهم

فربما كان في ارخائه ضرر

وجاء حكم الاقدار أعجب من البيت نفسه فالحبل ضاق حول رقاب كان قائل البيت يريد حمايتها بأزاحة أعدائها. وليس مما يرفضه العقل ان العاقبة كانت خليقة أن تكون أسلم فيما لو جاء البيت وغيره من الأبيات والشعارات داعياً الى اتباع الرحمة..

على اي حال وبصرف النظر عما يقال عن الحرب المشروعة وغير المشروعة فقد حم القضاء وقامت الحرب تطحن وتفتك وتدمر من نحو ثمانين شهرا. انها قامت ودامت ثم غامت في آفاقنا حتى لم نعد نرى من خلالها أرضاً او سماءً تنقشع فيها الغبرة عن نهاية لها في الأفق البعيد ذلك ان ايران انتقت للسلم شرطاً هو على العراق أكثر ثقلاً وصعوبة من الحرب نفسها والشرط بظروفه التي تلابسه أدخل في المستحيل منه في الممكن فالرجل الذي يشترطون قلعه هو كالكتابة المحفورة في المرمر والنقش النافذ الى كلا وجهي القماش لايزولان إلا بزوال المرمر والقماش، بل إن حساباتي تقول لي في هذا المعنى شيئاً آخر اوثق اتصالا بواقعنا: فبافتراض ان الرجل استجاب طواعية للشرط أو اراد الانزواء بلا شرط ولايحزنون فلسنا نرى وجه الممكن في استلال نفسه وحذف دوره من القيادة ومن كيان العراق لشدة التلابس بينه وبينها ولاأطيل في هذا الباب لانه

مسدود آليا بل لايوجد باب حتى ينسد أو ينفتح. فالحرب اذا، كما يظهر للعين، ليست بالشيء الذي يقول فيه القائل كلاما على احتمال انتهائه. نهاية الحرب في اقرب صورة الى التشبيه هي كالحياة والموت لابد من حلولها ولكن: اعمل لدنياك كأنك تعيش ابدا. فلا محيص من تعاملنا معها على اعتبار أنها قد تدوم وتدوم حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا. وكل تفاؤل مبنى على غير الحقائق الملموسة في انتظار الفرج إيهان خطير لارادة الكفاح لايعوضه تعويذ.

فلما كانت الحرب تتصل بوجودنا ومصيرنا وليس بهوامش الزينة والزهو المنفوش والفخر الأجوف ومالى هذه السلع الترفيّة على حوافّ حياتنا فان التزامي بالصدق الذي لايحتمل النقاش هو نخاع الهيكل في بياني فاذا تعذر ذكر الحقيقة في أمر من الأمور لاسباب قوية من المصلحة الوطنية تجاوزتُها الى غيره من الممكنات ولن احاول مزج الحق بقدر من الباطل يسهّل بيانه: ان جلال المناسبة وقداسة الأمانة يرتفعان على كل اعتبار آخر يحويه امكان البيان.

أسوق كلامي الى جوانب مختلفة لحيثيات الحرب والتصرف الأمثل فيها من زاوية شعوري بالواجب الملحّ من طرح الرأي الموزون وعلى قدر طاقتي في استكناه ماهو مستور (ولاتحسب الشورى عليك غضاضة). ولستُ بصدد وضع الخطط لادارة ورسم التكتيك وتثبيت الستراتيج حتى يعترض المعترض باني انشغل فيما لا أجيده، فالجانب المتصل من الحرب بعمومياتها وممهداتها والتأقلم معها ووشائج الترابط بين الجبهة الداخلية في ميادينها المختلفة وبين خطوط النار على ساحة المعركة فيه مواضيع غير غريبة على شخص مثلي يواكب الحياة العامة منذ اكثر من اربيعن سنة. ثم ان الذي اقوله لايُلزِم أحدا بشيء فاذا سقتُ رأيا صوابا في كشف موضع للخلل أو وصف تدبير وجيه أو درأ خطر منسى كان الاخذ به أو تجاهله في طوع أصحاب الشأن ولايكون بيانه

سببا لأي ضرر أو خطر متصور. لذلك أقول:

ان الحقيقة الاساسية الأولى فيما يجب بيانه والأيمان به هو أننا لانستطيع أن نخسر الحرب وليس في طوقنا أن نحتمل خسارتها لانها في ارجح الأحتمال تنقض كيان العراق وتفرقه بددا وفيئاً مقسوماً:

خسرت فرنسا حرب ١٨٧٠ وحرب ١٩٣٩ ولم تنتقض.

خسرت روسيا حرب ١٩٠٥ وحرب ١٩١٤ ولم تنتقض.

خسرت المانيا حربين عالميتين وبقيت لها بقايا تقف على قدم المساواة مع الدول العظمى.

خسرت اليابان آخر حرب كبيرة سنة ١٩٤٥ وهي منذ عشرات السنين من عمالقة اقتصاد القرن.

فالحظوظ في موزاين الحرب تتفاوت من دولة الى دولة وقد تتفاوت من عصر الى عصر، وحظ العراق في خيارات النصر والخسارة حظ محدود قليل العرض لا متنفس فيه ولايتسع لغير خيار السلامة إما صلحاً وإما نصرا وإما حربا حتى سنة الالفين ومابعدها. انا لااقول بل انا ارفض قول القائل: لنا الصدر دون العالمين او القبر. كفانا ان يكون لنا (عراق) فبدونه يكون لنا القبر.

هدف (سلامة العراق) ينبغي ان يضم في مضمونه ومقتضاه كل هدف آخر، جليل أو ضئيل، يمكن ان تنشغل به سياسات الدول. ولاداعي لتعداد الأهداف المختلفة فلتكن ثلاثة أو الفا، ولتكن من أربعة أصناف او الفي صنف فالمهم في أمرها، كثرت أو قلّت، أن تخدم هدف (سلامة العراق). كثيرا ما نقرأ ونسمع أنه لاشيء فوق النصر وكل شيء من أجل المعركة ولكن اطلاق الكلام ورفع الشعار بحد ذاته شيء محايد حتى يترجم الى عمل وقد يكون مايصرف من المال على عشرة الاف شعار في احدى المناسبات العابرة أقل جدوى بمراحل من أن تُشترى به

سيارة أسعاف أو يصرف في توسيع قاعة طعام للجنود أو في شراء معمل لتصليح الدراجات.. فاذا كانت الاهداف كلها يجب طيها في هذا الهدف الواحد الخطير فمن نافلة القول ان المزاجية في رسم الخطط والسياسات على كل الأصعدة لايبقى لها مكان. اننا لسنا نحتاج الى رؤية محافظ أو وزير يحف به الحشود وهو يقص الشريط في افتتاح مشروع من المشاريع بقدر مانحتاج الى كون المشروع نفسه يخدم جهدنا الحربي على وجه من الوجوه في واقع الأمر لاواقع الادعاء. نريد مشاريع تديم ثباتنا في الجبهة ونعفى المسؤول الكبير من مشقة قص الشريط. والكلام هنا لايقصد شجب المراسيم المعتادة في المناسبة المستحقة لها وإنما المقصود به الأشارة إلى الغرام الشائع في العالم الثالث عموما بالمظاهر فهو في ذاته مظهر تخلف عن روح العصر وفي مثل وضعنا ضرب من ترك المهم الى مادونه. ولاداعي للنبش في هذا الشأن فهو بادٍ للعيان بما فيه الكفاية.

بعد هاتين الحقيقتين: حقيقة ان الحرب مرشحة للدوام وحقيقة اننا لانستطيع خسارة الحرب تأتي حقيقة ان ايران جادة في ادامة الحرب وليست متظاهرة.

ولئن كان مما يأباه المنطق أن يُنيب الأنسان نفسه مناب غيره للتنبؤ بما يفعل ومالايفعل فان من حق الانسان ان يستدل من الوقائع ماهو خليق ان يكون هدف تلك الوقائع فاستدلال عزم ايران على مواصلة الحرب من جملة تصرفها استدلال مقبول يصح اتخاذه قاعدة للعمل بل اننا قد نفهم من طبيعة مجرى الأمور فيها منذ سقوط الشاه وارتباط مصير النظام العائمي بنصره أو اخفاقه في الحرب مضافاً اليه طبيعة آيدولوجيته المبنية على وجوب الانتشار، نفهم من هذا كله ان ماتعلنه ايران من تصريحات قاطعة في رفض السلام هو موقف نهائي مفروغ منه مفروض بحكم الظروف الموضوعية التي لايدفع حكمها.

ايران جادة في الحرب وادامتها ولاتتوقف الا اذا فقدت القدرة على الحركة سواء كان ذلك

باستنفادها لطاقاتها أو بتدخل قوة اكبر منها توقفها موقف المكره.

والحقيقة الرابعة هي أن أرض ايران بقدر ارض العراق اربع مرات وان سكانها بقدر سكان العراق ثلاث مرات فيكون عمقها الستراتيجي البشري والجغرافي عاملا ذا تأثير كبير في اصرارها على ادامة الحرب بأمل فوز مبني على منطق الأرقام. وليس من حسن الفطن التقليل من شأن هذا التفاوت الكبير فانه مما يجب ان يدخل في كل حساباتنا كون خصمنا أوسع أرضا واكثر نفراً أربعة أضعاف وثلاثة. غير أن ذلك محكوم بالحقيقة التالية: الحقيقة الخامسة تقول ان ايران دولة مهاجمة فاذا تساوى المهاجم والمدافع في العتاد والأستعداد كان العبأ على المهاجم يفوق العبأ على المدافع درجات.

وتنطوي في هذه الحقيقة حقيقة أخرى من خصوصيات الحرب القائمة وهي ان ايران تستهين بارواح جنودها وتحارب بلحومهم في اسراف شديد. فها هنا عاملان:

عامل كلفة الهجوم وعامل الأستهانة بالأرواح وهما يختزلان اكبر قسم من التفاوت بين حظ البلدين من الأرض والبشر. ويتداعى كتداعي البديهية من هذه الحقيقة الأخيرة ان العنصر البشري في جيش العراق يمتاز بغلاوة العملة الصعبة لايستهان بها. ومما يمتحن فيه ذكاء القائد العراقي في المعارك ان يكون تثمينه دقيقاً للتضحية البشرية المبذولة في استعادة راقم او احتلال ربيئة أو كسب جولة و ربما كانت نسبة (واحد الى ثلاثة) لنا ولهم من الخسارة البشرية هي الحد الادنى الذي يوافقنا فالسيولة البشرية كالسيولة النقدية تنفذ في المائة قبل ان تنفذ في الثلاثمائة اذا استمر تناقصها بنسبة واحد الى ثلاثة . والقول هنا في ظاهر الوضع البشري للبلدين ومدى احتمال كل منها للخسارة البشرية وفي المنطق المستنبط من تفاوت السكان بما ينعكس منه على الوضع

العسكري هنا وهناك ولايدخل فيه حساب التفاصيل التي تتذبذب خارج الأرقام بما قد يكون هنا أو هناك من حسن التدبير في التنظيم والتنسيق واختصار الخطوط واختيار الأماكن فلكل ذلك دخل حاسم في القيمة العددية لمقدار السكان والجنود.

والحقيقة السادسة هي ان عنصر الزمن في موزاين الحرب ضد المهاجم ذلك لأن المدافع لايملك الا ان يدافع عن نفسه ويحمي بيته مابقى فيه رمق. اما المهاجم فلأنه يقوم بعمل ليس من متطلبات البقاء ولاهو من كفالات المعاش ويمتاز بثقل اضافي يتضاعف أثره السلبي عاما بعد عام فليس يملك فيه خيار الأستمرار كما يضطر المدافع إلى لزوم الدفاع فلا غرابة في أن تختار ايران اسلوب الهجوم الانتحاري تخلصا من عامل الزمن فقد ترى ان تقدم تضحية سنة كاملة في اسبوع واحد بأمل حسم الموقف. ولما كان العراق لاينوي حسم الحرب بالهجوم فمن حقه على نفسه ان يتقن فن الحرب الطويلة النفس وهو فن ذو فروع متعددة بتعدد المرافق المهمة في الدولة حكومة وشعبا ويدخل فيه التعامل الذكي مع العامل النفسي والشعور العام لمراتب الجيش أولا ولعموم الشعب تالياً فالجندي أس الاساس وقاعدة القواعد والخاصرة والصدر حتى الكتفين لهيكل الجهاز المدافع عن الديار والذمار وأقتل قاتل لأرادة الكفاح هو دخول الجندي معركة الموت والحياة بنفس مهزوزة وضمير غير واثق من أن الواقع الذي يعيشه ويضحى بروحه من أجل بقائه بعده لأولاده وقرابته وعامة بني جنسه يتكافأ مع عظمة التضحية بالروح ولنتأكد جميعاً بأن الموظف الذي حجب رئيسه الترفيع عنه وآثر به من هو دونه استحقاقاً يتوارى من الجندية بقدر نغز هذا الحجب لأعصابه، واذا واجه الموت في المعركة سيشعر أن دمه ضائع بمقدار ضياع حقه في الوظيفة ولولا وجود روح التمرد على المكروه في الأنسان لما قامت الثورات والانتفاضات ابتداءً وسأعود الى هذا الكلام بعد قليل.

وأترك الكلام في الاوضاع الداخلية للبلدين ومركزهما الأقتصادي وعلاقاتهما الدولية من

منظور اثارها في المجهود الحربي والوضع العسكري لكليهما. واسباب هذا الترك كثيرة منها أن الواقع لايحتمل الصراحة في كثير من هذه الشؤون ومنها ان استيفاءها يطيل الكلام أيما إطالة ومنها اعتبارات أخرى لامجال لها في الصحف ولقد قلت في العنوان انه حوار غير متكافئ مع الحرب.

الحقائق المذكورة آنفاً منها ماهو موضوعي مثل عدد السكان وسعة الأرض ومنها ماهو مرتبط بمجمل احوال الناس هنا وهناك وكان من الممكن الايوجد على صورته الحالية. الا ان هذه الأمور الأعتبارية على النحو الذي استعرضتها به تبدو حقائق تثبت في الأمتحان ويمكن الركون اليها في اقامة المعادلات الحربية والقتالية وماليها. وفي ضوْ خطورة هذه الحقائق ومقامها من قدرتنا الكفاحية سأقول رأيي فيما ينبغي ان يكون نوع تعاملنا ضمن أهل الدار ولن يجد القارئ في كلامي شيئا يمس الحقائق الأساسية التي استقر عليها العراق فالذي أقوله هو حق من حقوق المواطنة وواجب من واجبات الولاء للوطن اتبعه في اطار حرية التعبير معروضة على جهة رسمية تقدر مايذاع ومالايذاع وماهو بنشرة سرية تصدر في الخفاء. وغنى عن البيان ان رأيا أعلنه في مثل الموضوع الخطير الذي هو حربنا مع ايران يجب ان يكون خلاصة الخلاصة لمحصول تجربتي مع مشاكل العصر وقضاياه وفكره وثقافته ومع وقائع وحقائق الحياة الداخلية وتياراتها السياسية وقواها المؤثرة فاذا لم تذكر حيثياتها بالأسم وجب ان تكون قد أسهمت على نحو من الأنحاء في صياغة الرأي. ثم انه لايوجد شئ يسمو على انسانية المواطن كي يتعالى على النقد والتقويم ولايوجد في العراق غير انسان واحد معين بالذات في قمة القيادة له حصانة من النقد فنحن جميعا من ادم وادم من تراب وتضمّنا وحدة المصير. ويتصف منطق قلمي بتركيبتين، اولاهما انى فرد من خارج السلطة ومن خارج التنظيمات الحزبية ومن خارج اي اعتبار آخر يوفر لصاحبه وقاية مما قد يتعرض له الفرد الاعتيادي من مؤاخذة فيكون ركوني الى قوة الحقيقة الناصعة ووجه المصلحة

الخالصة في كلامي هو حرزي. وابريْ ذمة المتشكك اذا أراد زيادة في التأكد أن يعرض كلامي على أشد المحامل ريبة فلن يجد فيه إلاّ ما يضر اعداء العراق في الداخل والخارج.

والتزكية الثانية هي انى لاأبنى كلامي المواكب للمصلحة العامة من منطلق حماية مصلحة خاصة ملحوظة لى فان مايصلنى من خيرات الوطن هو دون معدل دخل الفرد الواحد اذا اقمنا الحساب من قسمة مجموع الدخل العام على عدد افراد العوائل في العراق. فأنا في قياس المصالح وموازين المنافع ابدو كالمتبرع المتطوع في بيان الرأي المعتنى به وتجشم الأنشغال بالصياغة الصحيحة وتكلف الدقة فيما اعتقد انه بحاجة الى تعديل أو تصويب.

اردت بهذا التوضيح فضلا عما فيه من إنارة على نحو ما، أن أقدم الجواب على تساؤل بعض المتأولين عن المآتي الحقيقية لما قد يبدو على كتاباتي من مسحة الصراحة فليس يكفي في نظرهم ان يكون الأنسان ذا ثقة بالنفس وذا ثقة بحسن تقدير الناس من مسؤولين وغير مسؤولين كي يجرأ على ولوج ابواب الصراحة، فمن رأيهم ان يكون وراء الأكمة ماوراءها ليستطيع واحد مثلي ان يكون صريحا. ومن رأيي ان يكون الانسان صادقا مع الناس في كل شيْ متصل بالمصالح والشؤون العامة وكان هذا رأيي منذ اليوم الأول الذي بدأت فيه الكتابة وما جابهتني في هذا مضايقة أو ملاحاة بل اني أجد في يومي هذا يسراً في نشر معتقدي وتلقيت الدعم والتشجيع في بعض ماكتبت من اعلى مستوى في الدولة لا لشيْ الا لصراحتي وصدقي فيما أقول وتطابقه مع مقتضى المصالح فكيف يسوغ بعد هذا حجب الرأي اذا أمكن الأظهار؟

ولو ملكت من حطام الدنيا وصنوف السلاح شيئاً غير الكلام لأسهمتُ به في تعزيز خطوطنا وتمتين صفوفنا ولكن لاأملك غير مسدس بلا طلقات، تقريباً، اعاني صعوبة بالغة في تجديد اجازته، فأتراخى فيه الى أن يتطوع أحد ابناء الحلال برفع كلفته عن عاتقي. فالى شعب العراق حتى اصغر صغير فيه والى ترابه حتى نقطة مركز الارض تحته والى سمائه حتى بروجها واوج نجومها

والى مائه حتى السمك تحت ثوره الموهوم: أعمق حبي وارق تحيتي وأصدق امنيتي واخلص دعائي ورجائي واصفى صفاء معتقدي في كلمات كنت اريدها تتوهج بالحق وتشع باليقين وتهدي الى محجة الصواب وتضيء في نور تجليات الولاء والوفاء «يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار». فاذا اقصر الأمكان وعجزت الطاقة وحصرت الأستطاعة دبت النية المطهرة على صراط العزم الى مدادى فانثال بالمتيسر من الكلام العفيف النظيف الذي هو نهاية قدرتي وغاية همتي في التبليغ لأقول:

لاتهاون ولاهوادة ولاتراخي في قيامنا جميعا بالواجب الأجل الأقدس الأكرم في حماية انفسنا من الفناء وصيانة عراقنا من التبعثر. والطريق الى ذلك ليس مفروشا بالسندس والحرير فالعدو شرس مستقتل وصبره على المكروه وحمل الوقر يبلغ عند الكثيرين جدا جدا من مهووسيه حد تفضيل الموت على الحياة ففيهم نماذج بالألوف المؤلفة تذكرنا باتباع حسن الصباح في قلعة (آلموت) اذ يرمون انفسهم من الجبل ويكوون أحشاءهم بالنار لأشارة من إصبع معبودهم أو نظرة من زاوية عينة وكل قول بخلاف ذلك هروب من حقيقة مرة الى وهم أمر فليس يفل الحديد وصفه بالليونة والهشاشة وليس بعد خدع النفس بالتقليل من شأن العدو الا تراخي الهمم وتفشي اللامبالاة فالناس لاتذهب الى صيد الثعلب باجهزة صيد الذئب فاذا انكشف ان الطريدة ذئب وليس ثعلبا أو ارنبا حصلت الخيبة ومايتبعها من رد الفعل السلبي. ان مخاطبة الاذهان للاقتناع بضعف العدو وانهزاميته لاتأتي بالنتيجة المرجوة الا اذا امكن حجب الوقائع التي لاتنسجم مع ضعفه وهو أمر خارج نطاق الامكان. والعراق ليس بالجبان الذي يفقد اتزانه في مواجهة الشدة يملك قدرا من الشجاعة يخوله القدرة على امتصاص الصدمات. وتنخفض عنده وعند غيره من الناس هذه القدرة بمقدار مايجد نفسه غير موثوق من شجاعته في التعامل معه. على ان الصراحة المطلقة في كل مالايسر شيء وراء ماتختمله سياسات الشعوب وقد قرأت للمعلق السياسي

والترليمان في احدى المجلات الأمريكية مقالا بعنوان (حق عدم المعرفة– Right not to know) يشرح مايحدث في احوال كثيرة من ان يكون من واجب الحكومة حجب بعض الحقائق والأشياء عن الناس لما في معرفتها من ضرر.. فالمسألة في جانبيها متروكة لحسن التقدير وأهم اعتبار في ذلك هو جعل الناس تؤمن بان مشاعرها محترمة في مخاطبتها بما يمكن تصديقه. على اي حال فان الجندي يرى بنفسه شجاعة وانهزامية عدوه على الطبيعة في الجبهة فما جدوى قلب الأمور في نظر البقال ومؤذن الجامع والسمكري في المدينة.

ان حجب الواقع يكون ذا فائدة قصوى اذا أمكن خدع العدو به ويحضرني مثال لذلك من وقائع الحرب الثانية بعد سقوط فرنسا عندما استضافت بريطانيا جاسوسا المانيا متسترا في هوية تاجر اسباني أو برتغالي وكانت بريطانيا في غاية الضعف من الناحية العسكرية فدبرت له سفرة بالطائرة الى اسكتلندة واوعزت الى بضعة اسراب من طائرات القتال ان تمر بطائرة الجاسوس مرارا وتكرارا على نحو يوهم بأنها اسراب تفوق العدد كي تنخدع المانيا بالتقرير الذي سيرفعه الجاسوس اليها عن كثرة طائرات القتال من أحسن الانواع في القوة الجوية البريطانية لعل ذلك يكسر عزمها على غزو بريطانيا. وهناك قصة أخرى من قصص الدفاع الجوي فيما يسمى (معركة بريطانيا) تصور فائدة الكذبة المشجعة على الصعيد الداخلي فقد تميز يوم من أيام صيف عام ١٩٤٠ بما اعلن عن اسقاط ١٨٦ طائرة المانية فيه فعمت موجة من الحماس الوطني والثقة بالنصر شملت بريطانيا كلها وتسربت منها الى دول الكومون ويلث وممتلكاتها وراء البحار. ويقول المستر جرجل (السر جرجل فيما بعد) في مذكراته عن ذلك اليوم انه تبين فيما بعد بالتحقيق والتثبيت ان عدد الطائرات المسقطة هي ٣٦ فقط ولكن الرقم ١٨٦ كان أحدث أثره لانه زود النفوس المتعطشة الى التفوق على العدو بجرعة قوية من الانتعاش والازدهاء بعد نكسات مريرة وخطيرة لامجال لذكرها. وجاءت فائدة الكذبة من عدم ادراك الناس يومئذ لحقيقة الأمر وإلا لانقلبت

الى ضرر.

ان التصرف في الصراحة مع الناس والتمويه عليهم عمل حساس يحتاج الى دربة ومهارة كي يأتي بالنتيجة المرجوة أو يدرأ الأثر السيئ ولكن المقدار المتيقن منه في هذا الشأن هو انه لاحكمة في سلوك سبيل حجب الحقائق مع علم الناس بها فهو موهن للعزيمة وهادم للثقة المتبادلة الضرورية في الملمات.

غير أن خطورة ماسبق تصغر الى جانب فن التعامل مع الجندي فليس يفيد كل علاج في الارض وكل حكمة في ادمغة الفلاسفة وكل براعة في فن الاعلام اذا كانت نفس الجندي غير مستريحة الى الاقتناع بافضلية ماهو فاعل من بذل روحه التي ليس لها عوض في الدنيا من مال ومتاع وزهو ومديح وتماثيل من الذهب تقام له بعد موته: لايوجد عوض عن الروح على وجه الأطلاق الا في شيء اعتباري واحد وهو الأيمان والاقتناع بان الهدف في الفداء أجل وأقوم وأعز من الروح وليكن الهدف مايكون فقد يضحي ابو جهل بروحه في مجد اللاة ويقتل الطامع ولده حباً في المال ويلقي الولهان بنفسه في المهالك وصولا الى من يحب. اما الجنود فأنهم يلتقون في واجب واحد هو صون الوطن من العدوان فاذا لم ينقلب هذا الواجب الى عقيدة راسخة في النفس لم يُقبل الجندي على المهلكة طواعية ولايختار الموت اذا وجد منه مهرباً ولايفيدنا في رأب صدعه النفسي وسد الثغرة التي احدثها بهذا الصدع وصفنا إياه بالجبان والخائن وغاية ماتفعله هذه الأوصاف أنها تؤكد فجيعتنا فيه: ان اعظم بشرى نزفها الى الشامت هي طول القوائم بأمثال اولئك المهارين. يجب ان نعلم بل نعلم علم اليقين ان (الجود بالنفس اقصى غاية الجود) لاشيء ذو قيمة في ظل الموت. ان أحدنا يشعر بانحلال قيمة الاشياء واختفائها في العدم اذا اشتد به المرض أو ضاق عليه الحال بما هو فوق احتماله فكيف تكون للأشياء قيمة اذا حصل بأسه منها وليس كالموت مايقطع الأمل. قبل اكثر من الف سنة قال الشاعر العربي في غير ميدان الحرب

والفداء كلاما مثاليا في البأس من احلى الأماني الى القلوب الواهة:

أنت وحياض الموت بيني وبينها
وجادت بوصل حيث لاينفع الوصل

فالمفروض في الجندي المقبل على بذل الروح ان يكون خاليا من العقد والشكوك فيما هو مقبل على التضحية من أجله. واهدف نفسه لاينفصل عن الأحوال الملابسة له فحب الوطن شيء لايختلف فيه عاقلان ولكن مفهوم الوطن ليس فقط هو التراب والماء والفضاء والعشب والغزلان السارحة بل هو هذه الاشياء، وما يضاف إليه من تراث متصل بماضيه ومن علائق بين الناس نشأت على أديمه ومن امان في كنفه وكرامة في معاشه وماقد يصعب تعدداه من حيثيات الأجتماع بمعناه الأهلي والرسمي فكل نقص في نصيب الجندي من هذه الجوانب الايجابية يترجم نفسه الى نقص في حماسه للتضحية. فاذا صار النقص بخساً فترت همته اكثر واكثر واذا اقترن البخس بالأهانة وقف على البرزخ بين الأمانة والخيانة ويكون خوفه من غلبة عدوه هو رادعه دون الخيانة. التعامل مع الجندي يبدأ في اطاره العام كمواطن من بدايات حداثته في المدرسة والحارة وصعودا بصعوده في العمر الى ميادين الحياة الأكثر مسؤولية وبصورة خاصة مايتصل منها بالمؤسسات الحكومية ومنها المدرسة حيث لايجد مايحمى به كرامته أو حقوقه إلاّ حسن خلق الموظف. صحيح ان الناس جميعا يساوون الشخص المرشح للجندية في ضعف حيلتهم بالدوائر الرسمية ولكن كلامنا منصب بالدرجة الاولى على الجندي والحرب وعلاقة كليهما سلبا وايجابا بنوع الأحوال في الساحة المدنية وانعكاس أثر هذه الأحوال من خلال انعكاسه على الجندي وان كان استواء الأقيسة الحضارية في المناخ الذي يعيش فيه المرشح للجندية يعم خيره كل الناس ولكنا لانوسع الكلام في ذلك.

المرشح للجندية يرضع ثدي المجتمع الذي ينشأ فيه وتنمو معه حصيلة التربية المتاحة له.

وعلى الجبهة في يومنا هذا ألوف مؤلفة من الجنود كانوا أيضاعا يوم بدأت الحرب: انهم بالضرورة مصبوبون في قوالب صاغهم فيها الواقع و بفرض انه بالأمكان اعادة صياغة الناس بعد القولبة فان هؤلاء الجنود لم ينفسح المجال أمامهم بسبب زخم الحرب للصياغة المجددة ولاحتى لتوجيه مركز ومؤثر فهم خلقوا بنوع الحياة التي عاشوها خلال الثمانين شهرا الأخيرة. ومن غريب حكم التمازج بين البشر ومحيطه ان العوامل السلبية تحفر في نفسه اخاديد اعمق مما تحفره العوامل الأيجابية ولذلك قصة تطول علينا واكتفي بالقول المشير الى انه قد يحدث ان تكون واقعة واحدة على درجة من التأثير السلبي الذي يؤدي الى الجنون أو اهتزاز الشخصية أو الشكوكية أو أحد امراض الـ (فوبيا – الخوف). وبقدر مايكون مجتمعنا متحضراً يزداد امكان اختفاء العلل النفسية والخلقية التي تؤثر في صياغة الشخصية عموما ومنها شخصية الجندي المكافح في الجبهة. ولئن كنا نعتقد ان المسؤولية الحضارية أمانة في رقبة كل انسان يعيش في ظل علم مرفوع في سمائه فان واقع الأمر هو ان المسؤولية تتفاوت في ذلك من ذمة الى ذمة بقدر تفاوتها في القدرة على التصحيح والتعديل فان مسؤولية استاذ الجامعة أكبر من مسؤولية حارس الغابات وكذلك الشأن بين المحافظ وكاتب النفوس. وهناك خط فاصل شديد الوضوح بين المسؤوليات هو خط الحد بين الحكومة والشعب. وهنا تبدأ قصة موجعة لايمكن تحاشيها:

كانت الشعوب كلها في القديم القديم وشعوب العالم الثالث من القديم القديم حتى يومها الماثل تخشى السلطة فانه مايزال حاجز ضخم للخوف قائما بين الأفراد العاديين من عامة الشعب وبين الموظفين عموما واصحاب السلطة خصوصا. وباستثناء الحالات التي تكون فيها القوة الرسمية مانعة من سطو الحرامية والمعتدين على الناس فانها باعثة على التوجس والخوف دون ان يكون له علاج غير مزاج الحاكم وكل قول بخلاف ذلك مدحوض بالتجربة اليومية على الف صورة وصورة. والناس من عامة الشعب لايراجعون الدوائر الرسمية الا مكرهين باستثناء

اصحاب الطمع في الكسب الحرام وباستثناء الحالات التي يكون فيها الشخص على صلة صداقة او قرابة مع موظف يزوره في مصلحة أو مجاملة. وفي البلدان التي تقوم فيها الثورة يزداد التوجس من الشخصية الرسمية بسبب القدسية التي توصف بها أعمال حكومات الثورة فاذا كان الوقوف بوجه الحكومة في عهد ماقبل تموز يوصف بالوطنية فقد أصبحت المخالفة توصف بالخيانة أو الأجرام منذ ١٩٥٨/٧/١٤ وهذه حقيقة لايتناطح فيها كبشان. ولسنا في موقف نناقش فيه الاحوال في البلدان الثائرة ونجد الحلول للمشاكل التي تقوم فيها منبثقة من طبيعة الثورة نفسها فبحث ذلك خارج اهتمامنا الآن والخوض فيه يستدعي الرجوع بنا الى الثورة الفرنسية نازلين منها عبر الثورات الكبرى والصغرى حتى هذه الأيام مستخلصين النتيجة التي ندعيها من ازدياد خوف الناس من الحكم الثوري بسبب قطعية احكامه وسرعة تنفيذها وافتقاد جهة ثالثة يمكن الأحتكام إليها. وكلامنا في حاجز الخوف القائم بين الحاكم والمحكوم لايلجئنا الى الخوض في موضوع الثورات ويكفينا أن نجد مصداق مانقوله في عموم الأحوال بالعالم الثالث كي ندلي بدلونا في التأكيد على وجوب خلق مناخ يستطيع فيه الأنسان الأعتيادي ان يمارس حياته ومواطنته بلا توتر أو توجس توصلاً الى تنشئة أجيال الحال والمستقبل على خلق وطني وشعور بالمسؤولية لايعتوره الوهن من جهة غلبة التقية المبالغ فيها والخوف من المؤاخذة على تصرفها. والحق يقال ان اقامة مجتمع بهذه المواصفات لاتتم في زمن منظور ولكن مالايدرك كله لايترك كله وتبقى الضرورة ملحة في خلق جندي غير مهزوز الشخصية عن سبيل التقليل من الأسباب المؤدية الى قمع الشخصية. وبصرف النظر عن الحرب ومستلزماتها فان تحرير الأجيال الفتية واليافعة من عقدة التوجس هو في مقدمة المسؤوليات على عاتق موجهي السياسة العامة. والعلاج المباشر في هذا المرض يملكه الموظفون عموماً والاقوياء منهم خصوصاً فالوصول الى حالة لايفزع فيها المواطن من رؤية الشرطي وممن لبس لباساً يوحي بوجود قدرة تنفيذية وراءه ليس أمراً متعلقاً

بالمستحيلات فالمفروض في المواطن الأعتيادي ألا يفزعه شيء مالم يكن قد ارتكب جريمة. وفي البلاد المتقدمة كسويسرة والسويد مثلاً يكون الشرطي هو الجهة التي تراجع نفسها لمعرفة ما اذا كانت قد أخطأت في شيء ويكون المواطن بما يملك من كامل الحرية القانونية هو الرقيب على صاحب المسؤولية العامة.

في العهد الملكي كنت أقلب مقولة شائعة فاجعلها هكذا: البرلمان مسؤول أمام الحكومة لان غالبية اعضائه كانت مدينة بعضويتها للجهة الرسمية

السيطرة على كل الروافد المعنوية التي تصب في النفوس عوامل انفتاحها وانكماشها أمر وراء الأمكان ولكن اذا كانت الأحاطة بصنوف العلاج الأيجابي الذي هو بمثابة جرعة الدواء ذات الوجود الملموس بالغة الصعوبة فان التحصن ضد السلبيات الذي هو من قبيل مايسمى بالوقاية ليس وراء المستطاع لاسيما وإن سلبيات جدار الخوف هي أظهر وأخطر عوامل التحجم والتشرنق في اغوار النفوس ومخابئ العقول الباطنة، فانه من الممكن القضاء على بواعث الخوف أو التقليل منها ومن أثرها اذا عرف مصدرها، فنحن قد نعلم اولا نعلم لماذا يخاف فلان من الظلام ولكن نعلم لماذا يخاف من المحافظ قيبق علاج الظلام عصيا حتى يكتشف طبيب نفساني سببه، ويزول خوفه من المحافظ اذا وجد باب غرفته مفتوحا لاشرطة عليه وكانت البسمة الصادقة مرتسمة على اساريره.

قد يكون مما يساعد شهية القارئ لمتابعة المقال اذا نقلت له نكتة مروية عن فعل الخوف من صاحب السلطان بالنفوس. يقال انه على عهد الحكم العثماني في مصر حدث أن عُين في سنة من السنين أول متصرف مصري في الأسكندرية فأقبل على زيارته والالتفاف به جموع الأسكندرانيين يوما بعد يوم حتى ضاق بهم. وكان له (ياور) تركي من أصحاب الشوارب المفتولة وله رهبة كبيرة في النفوس فاستعان به المتصرف واتفق معه على أن يباغت في غد جموع

الزوار حين تزدحم بهم غرفته فيطردهم ويكفيه عناءهم. وفي تمام الموعد دخل الياور غرفة المتصرف بكرباجه الضخم وعيونه الجاحظة واساريره المكفهرة وأطلق صيحة مدوية يأمرهم بترك الغرفة فكان المتصرف أول واحد فر الى الخارج الغرفة ناجيا بجلده.

والكلام في كيفية رفع حاجز الخوف لايحويه حيّز هذا المقال فالدوائر الرسمية لها أول وليس لها آخر وتتفاوت درجة البيروقراطية من واحدة الى أخرى وتختلف اصنافها بحسب حاجتها الى الوقاية من التخريب ومنها أجهزة تنفيذية على قدرة بالغة في القصاص وتحيط نفسها بأسوار لاتخترق من أسباب الحرز والحماية.

وقد تمر احدى المعاملات الرسمية في ديوان من الدواوين بشبكة معقدة من الصلاحيات واللجان والمستشارين يضيع بينها صاحب المصلحة. ورب مراجع جوبه بالقولة الخالدة: تعال بعد اسبوع في اكثر من مكتب واحد في ديوان واحد. وكثيرا ما يعجز المراجع عن مجاوزة الاستعلامات الى مابعدها من مراكز الصلاحيات...

وفي كل ذلك يكون المواطن الأعتيادي محملا بشعور ثقيل من توقع مالايسر ولايملك منه ستراً الا في السكوت أو التراجع. فاذا كنت لاأجد مجالا لبيان العلاج في قلب العسر إلى يسر واذا كان هذا الواجب هو بالضرورة واقعاً في ذمة المسؤولين من كبار الرسميين فاني أستطيع القول بضمير مستريح هو وجوب تقيد الدوائر الرسمية بحدود (الحزم) وعدم تجاوزها الى البطش والتخويف. ينبغي ان يشعر المواطن وهو يدخل دائرة حكومية انه ذاهب الى مأمن وليس الى كهف في الجبل مكتنف بالمفاجآت.

ويمكن التأكد بلا أدنى شك من أن استقلال القضاء واعتباره مؤسسة ملاذاً فوق كل اعتبار، أكبرُ ضمانة لاحترام حقوق المواطن وشعوره وشخصيته ضد الأعتداء من اية جهة كانت. واستقلال القضاء بحد ذاته من أصدق المعايير لقياس مدى تحضر بلد من البلدان.

مما يتصل بهذه الحيثيات في علاقتها بسلامة الجبهة مسألة هي في ظاهرها منقطعة عن الحرب وأقصد بها ملكية الفلاح للأرض ولاسيما في شريط الحدود وحيثما وجد احتمال متصور للاشتباك مع العدو المتجاوز. ذلك ان الدفاع عن شيء يملكه الانسان مباشرة وبلا تأويل أقوى وألح من دفاعه عن حصته في ملكية مشاعة. ولقد ناقشت هذه الفكرة مرارا عند ذكر احوال ممتنع فيها الفلاح ببلدان اعتنقت الأشتراكية عن الأستجابة لتطبيق التعاونيات فقلت واعيد القول بانه اذا كانت الثورة في تلك البلدان تفشل من أن تجد المصلحة من انسجامها مع نفسها بلا خلاف ولاتذابح فيكون فشلها سببا ليذهب هدرا كل دعاواها العريضة في فهم التأريخ والاجتماع والاقتصاد ومصلحة البروليتاريا فكيف يطلبون من الفلاح الأمي أن يتفهم الحكمة في أصلحية الملكية المشاعة من ملكيته الخاصة للأرض وغاية الغايات في المشاعة وبافتراض احسن احتمالاتها هي أن تتساوى حصته منها مع حصته من الملكية الخاصة وهو افتراض يكذبه العقل والبديهة والتجربة ولاتدعو اليه ضرورة فليس في ملكية الفلاح للارض شيء تأباه المصلحة ولايجوز ان تعتبر الأرض أعز من الفلاح. ان سكرتير الحزب الحاكم في تلك البلدان لايرضى ان تكون مسؤوليته وسلطته مشاعة بينه وبين زملائه من اعضاء اللجنة المركزية وهو لايتعب في ممارستها عشر معشار تعب الفلاح في أرضه فلماذا يطلب من الفلاح بفهمه المحدود ان يتضلع في استيعاب الفلسفات والنظريات والحيثيات والاجتماعيات التي ترجح ملكية الدولة لقطعة أرضه على ملكيته لها. والموضوع من الوضوح بما لاخفاء فيه. وتستلزم سلامة الجبهة في كل اجتياح اجنبي محتمل ان تكون الأرض المجاورة للحدود الدولية مملوكة للفلاح حتى ولو ادى ذلك الى الازدواجية في القوانين. على ان الازدواجية موجودة في صور أخرى ماكانت فيها مصلحة مطلقا ولامجال لشرحها هنا.

والكلام في هذا المجال يطول فاتركه الى ابداء الرأي فيما يجب ان يكون عليه التعامل مع

الجندي اثناء الخدمة. واني وان كنت على غيرطلاع كاف في كيفية تنشئة الجندي فليس مما يأباه الاحتمال ان تكون ملحوظاتي ذات فائدة: وذكّر إن نفعت الذكرى.

من الواضح انه اذا كان اكترائنا باستواء الأحوال الحضارية والمناخ الذي يترعرع فيه المرشح للجندية هو بنيّة خلق جندي خال من التوجس والتعقد وغير متردد في بذل الروح فمن باب أولى ان تكون الأحوال في الخدمة الفعلية وسوح القتال اتم استيفاء واحوى شمولا لدواعي الثقة بالذات والتضحية بالروح. واقول من باب تقريب الصورة انه اذا صرف صارف الف دينار في اقامة وليمة فخمة ثم قال للضيوف: تفضلوا يا أغبياء كلوا من هذه النعمة الزائدة عليكم تكون كلمته النابية هذه حكمت بافلاس الوليمة جملة وتفصيلا.

يمنعني عدم اطلاعي الكافي من الاسترسال في التفاصيل فاقول باختصار: انه من الزم اللوازم التوفير على الجندي في كرامته ولاينبغي أبدا ان ينقلب الضبط العسكري الى التضييق. فليس من جدوى في تمرين الجندي وتدريبه وتعويده وتطويعه حتى ينقلب الى مثل الآلة التي تستجيب لتحريك المفاتيح فالجبهة مليئة بمختلف الآلات التي لاتعقل وتبقى بحاجة ماسة الى عنصر عاقل مختار صافي الرؤية لتحريكها وتشغيلها عل اكمل وجه.

لي تجربة حية في معايشة الجنود ومراتب الجيش وضباطه من مختلف الدرجات وذلك في الفترة من ١٩٨٣/٦/٦ حتى ١٩٦٣/٦/٢١ حين كنت مع ثلاثة آخرين من المدنيين في ضيافة اللواء العشرين (كما اذكر) في رانية لاحوال اقتضت ذلك.

لقد رأيت بأم عيني كيف يختلف تعامل الرئيس مع مرؤوسيه ويتفاوت من هذا الى ذلك حتى يبلغ حد التناقض. وجدت من تصرف وخلق الزعيم الركن (يومئذ) سعيد القطان ومن حرص وتفاني مدير امن كركوك (يومئذ) نوري الخياط مالا أنساه مدى العمر وسأذكره كصحفة مشرقة فيما ينبغي ان يكون عليه اتصاف حامل المسؤولية الكبيرة باللمسة الانسانية التي تحبب الناس فيه

وتشجعهم على المشاركة في انجاح مسعاه. اذكر انه حين تقرر اجتماعنا انا والمرحوم كاكه حمه خانقاه. بصحبة مدير الأمن مع مسلحي العشائر الواقفين بوجه الحكومة من ايام عبد الكريم قاسم وكان مفروضا أن يتم الاجتماع ليلا في مكان وعر من الجبل لا يوصل اليه الا بالخيل تارة ومشيا على الاقدام طورا جاء النذير من عسكري في اللواء العشرين الى مدير الأمن بعدم الاطمئنان الى ذلك ورفض الذهاب الى المجهول وهو مسؤول كبير فكان جوابه انه يقدر مسؤولياته ويثق في صاحبيه (يقصدني وكاكه حمه) حتى انه ليذهب معهما الى أقصى الأرض. رحمه الله.

كثيرة هي العوامل التي تجتمع في صياغة الجندي سلبا وايجابا ومن وجوه الخطورة في تفاوت الكلفة لما هو ايجابي عما هو سلبي أن العمل السلبي لا يكلف شيئاً من مال وجهد فالنفس الذي يردده الانسان في شهيقه وزفيره يمكن ان ينقلب الى كلمات نابية وتهديد وايهان للعزم وكسر احترام الذات :

جراحات السنان لها التئام
ولا يلتام ما جرح اللسان

أما التصرف الايجابي فهو في أغلبه الأعم ذو كلفة و ان كان الكلام الدمث الباعث على الارتياح أيضا لا يكلف جهداً : لكي تكون قاعة الطعام نظيفة لا بد من الكنس و المسح وغسل المواعين وتنظيم المائدة بالاضافة الى شراء لوازم كثيرة كلها غالية و قابلة للتلف أما الاتساخ فيكفي له عدم التوضيب و الامتناع عن التنظيف . اقول هذا من باب التوضيح لضخامة الخسارة المادية والروحية في الكلمة الجارحة و التصرف النابي . انه لما تربح فيه الدولة أن يتم كسر ثلاثة كراسي عوضا عن كلمة واحدة جارحة لأنها تقضي على الفائدة المتأتية من كل الكراسي وغيرها من الاثاث ومعها جزء عزيز من الاعتزاز بالنفس . وليس يخلو من فائدة ومن الاتصال

بموضوعنا أن انقل كلاماً للمارشال روميل فيما هو داخل ضمن استكمال شخصية الجندي . في الكتاب الموسوم (أوراق روميل Romel Papers الذي نشرته أسرته بعد الحرب الثانية بمقدمة ضافية من المعلق أو الخبير العسكري البريطاني ليدل هارت جاء قول روميل عن الجندي البريطاني انه جندي مثالي في تنفيذ الاوامر وتحقيق الهدف الموكول اليه ولكن رؤساءه لا يدربونه أو يشجعونه على استغلال النجاح الذي يحققه في انجاز نجاحات اضافية . ويقول عن الجندي الالماني انه احسن من الجندي البريطاني في هذا الباب ولكنه لا يبلغ فيه المدى المطلوب من الجندي الامثل وينقل مثالا على ذلك صورة من صور معركة سوم في سقوط فرنسا ١٩٤٠ وكيف انه رسم لجنوده الهدف باحتلال الجسر الفلاني على النهر الفلاني ليلاً وكيف انه حين ذهب اليهم مع الفجر وجدهم قد احتلوا الجسر سالماً وتوقفوا عنده دون أن يستغلوا سلامة الجسر في انتقال الدروع عبره لاحتلال مساحات اخرى وراءه .

ان كلام المارشال روميل يتضمن في معناه ان الجندي له أن يستغل انتصاره فأذا حدث في ذلك ما قد يكون نكسة فلا تثريب عليه وإلا لم يبق منطق في الكلام حول استغلال الانتصار . يجب ان ينظر الى الهجوم الأصلي والى استغلال النصر فيما بعد نظرة متساوية فالنكسة متصورة في الحالتين ولا يجوز تغليظ المعاقبة أو المساءلة في الثانية دون الأولى والا بطل الكلام وحرم الاستغلال . . .

ليس لي أن أتكلم في نوع التدريب وانتقاء الأسلحة والغذاء والكساء وما قد يتيسر أولا يتيسر من التسلية والراحة والأجازات فهذه أمور روتينية وذات صيغ تكاد تكون متماثلة هنا وفي غير بلدنا أو قد تكون متمايزة فلا شأن لي بها وبتفاصيلها ولها مسؤولوها والمتكفلون بها . ونعلم أن السلاح العراقي جيد وموفور ونسمع من المصادر المختلفة كلاماً في كيفية استعمالها يتفاوت من مصدر الى مصدر فلاشأن لي بها ايضا إلاّ بقدر ما يتعلق أمرها بالناحية النفسية وروح الكفاح

لدى جنودنا فالجندي الذي لم تهتز روحه لا يؤثر فيه كثيراً نوع الطعام في الجبهة لسبق يقينه بأن الذي يقدم (اليه من غذاء هو أحسن انواعه التي يمكن تقديمها له أو أن حجب الأجازة عنه لم يكن الا بسبب اقتضاء الضرورة وأن فلانا من الجنود قد روعى رعاية خاصة لظرف خارق لا من باب المحاباة وهكذا . وتنعكس الآية في احوال اهتزاز الروح فان الصالح ينقلب في نظر المهزوز الى طالح . والواقع هو ان اي إخلال في موازين التصرف والتعامل من اي كان ينتشر خبره حتى يبلغ أقصى الأرض فالجنود لهم اتصالٌ بعضهم ببعض ولهم قرابة ولقرابتهم صحابة . فالمجتمع في جملته مثل دار اذاعة ضخمة يمون بعضها بعضاً بالأنباء .

ولابد من الأشارة هنا إلى حقيقة كبيرة تصدق في الحرب والسلم وتعم كل الأحوال حين تتوفر شروطها وهي حقيقة تستخلص بالاستنتاج : فكثيرا ما يحدث أن يصاحب النجاح مسعى مشحوناً بالنقص والخطأ فيغلب على ظن الناس أن النجاح مدين بوقوعه الى الكيفية التي تم بها المسعى وحقيقة الأمر هي انه قد تم النجاح برغم تلك الكيفية لا بفضلها فاذا شرب احد الناس سماً ولم يمت فليست حياته بعد تناول السم مستمرة بتأثير السم ، او اذا رمى نفسه من السطح ولم يدق عنقه فسلامة عنقه لا تعود الى المجازفة . وبقاء الصين دولة كبيرة بعد الثورة الثقافية يعني ان قوة التدمير في الثورة الثقافية لم تكن مميتة لا ان الصين مدينة بحياتها لها . . ...وإنه شتان بين النتيجة الحاصلة من التصرف الصحيح ومن التصرف السقيم . واذا كان في امكان قوة التصور أن تستحضر صورة للبشرية خلا تأريخها من الكوارث من حروب وأوبئة ومجاعات وزلازل وفيضانات واختلافات العقائد و ما الى ذلك لكانت خليقة ان تجد واقعاً متخيلا هو بقياسه الى واقعنا في اعقاب الخطوب التي طحنت تأريخنا ومازالت تطحن حاضرنا كالجنة بقياسها الى البرزخ الذي هو بين الجنة والنار . ومن غريب شأن اصحاب الفلسفات والمدارس الفكرية في أغلب الاغلب مما يبشرون به أن تكون هذه الحقيقة الضخمة محجوبة عنهم فقد تجد بل انك تجد انهم

يردون التقدم الى مبدأ (التناقض) والواقع هو أن مظهر الضرورة التي قد تصاحب بعض صور التناقض ما هي الا من قبيل الضرورة في وجود المعى الأعور بجسم الانسان ولو جاء المولود بلا معى أعور لكان أجدى عليه . وكثيرا ما يعتبرون ظهور التناقض في المواقف من باب طبيعة الأشياء ، والعكس هو الصحيح فان انواعاً كثيرة من التناقض والأختلاف والتناحر تنبعث ضد طبيعة الأشياء فليس من طبيعة المصلحة الفلسطينية مثلاً ان تتفرق قيادة حركتها التحريرية الى كذا كذا كي يكون تذابح فصائلها بعد ذلك أمراً مفروغاً منه . ومن قبيل هذا النوع من النقص والخطأ الذي لا ضرورة تدعو إليه يعتبر التشدد والتغلظ الذي قد يصاحب تعابير ومواقف بعض المسؤولين العسكريين – اذا حدث – في تماسهم بمراتب الجيش . لقد وردت الحكمة القرآنية المشرقة في الآية الكريمة : ادفع بالتي هي أحسن فأذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ، حاسمة في وجوب اتباع طرق اللين والموادعة وسيلة الى حسن المعاشرة وتلافي ما قد يقدح الكلام الحاد من شرارة في نفوس سامعيه . ان الجندي كطالب الأبتدائية يفتن بالضابط الذي يحسن اليه في اتصاله به فان طالب الابتدائية ايضا يفتن بالمعلم الموادع المحتفظ باحترام نفسه واحترام الآخرين . والبشر منذ اقدم العصور حتى يومه الحاضر مشغوف بالفناء في (القدوة) وتبلغ الغباوة ببعضهم حد الانتحار متى ما تعرض معبوده لشيء أليم ، وهذه حقيقة نعرفها جميعاً وهي اكثر صدقاً في الجبهة حيث المسألة تتأرجح بين الموت والحياة وتتضاءل المقاييس التي افتتن بها جماهير المراهقين الشباب بألفيس بريسلي وعبد الحليم حافظ : الضابط الانسان المشفق المشارك جنوده في الشعور والمحتمل مثلهم اعباء القتال ومخاطره يصبح في نظرهم بطلاً قديساً ، اسطورة ، مخلوقاً فوق النقد . ونحن في مثل وضعنا العسكري مع عدو شرس مثل ايران محتاجون الى هذا النمط من الضباط وهم محتاجون بدورهم الى هذا النمط من كبار الضباط. أنا على مثل اليقين في انه اذا استوت الأحوال في الساحة المدنية بعد ارتفاع حاجز الخوف المذكور وأقبل على الجبهة جنود

خالون من العقد واطرد التراحم بين القيادة والمراتب جاء حساب البيدر فوق مابشر به حساب الحقل كما يقول المثل. وهي حقيقة تسرى علينا وعلى كل العالمين.

ومما يتصل بناحية سلامة الجندي من العقد وجوب توزان الأحوال بين الذي هو جار في الجبهة من صنوف العناء والمخاطر والفداء مما تستلزمه طبيعة القتال وبين مايجب أن تكون عليه الصورة في الداخل من حيث رعاية مشاعر المحارب بتجنب التظاهر الصارخ بالافراح والليالي الملاح فأنه مما لايمكن الخلاص منه ان يكون الناس على اقدار متفاوتة في حيازة الوجاهة والثروة والنفوذ والجاه ولما كانت هذه الفئات في اي بلد من بلاد الله اكثر المواطنين جدارة بالشكر على النعمة التي وفرها لهم وطنهم وشعبهم أو اجتمعت عندهم في غفلة من الزمن فانه من باب الشكر على النعمة ان يلتزموا بحدود الأدب واللياقة واقتضاء الأحوال في التمتع باللذائذ المتاحة لهم. ولسنا نطلب منهم ترك التلذذ ولا الذهاب الى الجبهة ولا الفداء بأرواحهم: المطلوب هو الامتناع من خدش المشاعر بالأعلان عن تنافسهم على فتح قناني الشراب والزيادة في هصر القدود ومص الشفاه فأخبارهم معروفة وتضاف اليها الأضافات في انتقالها من فم الى اذن. والذي كان منها صحيحا كاف وفوق الكفاية ليستنكره أصحاب العقول السوية ويستفظعه المحزونون في الداخل والمرشحون للموت على الحدود. بعد رجوع جيش الأسلام من معركة أحد ارتفع الصوات من الحزانى والثواكل من نساء يثرب فدمعت عين النبي وقال قولته التي تهز مشاعر من لم تمت مشاعره: ولكنّ حَمزةَ لابواكيَ لهُ... ولنا اليوم من ضحايانا الأكرمين شباب دون عمر الورد، إخمص قدم كل منهم أشرف من قمة رأس كل متبذلي الدنيا والآخرة. واذا كان الوطن كه مديناً بفخره وعزته لتضحية هؤلاء الأكرمين فان اصحاب الجاه والثروة لهم الحظ الأوفى من ثمرات تلك التضحيات فيكون من باب الرفق بأنفسهم عدم إثارة الشعور ضدهم فلا يضرهم ولاينقص من مقادير متعتهم اسدال الستائر على النوافذ في غرفهم المضاءة.

ولست بهذا أرمي الى منع عامة الناس من المضى في حياتهم المعتادة فلا حكمة ولاانصاف من لجم النوازع المألوفة وفطم النفوس عما تشتهي سنة بعد أخرى ولربما كانت الحاجة الى المتنفس أشد في أوقات الشدة اذا طالت. ولم تكن بنا حاجة الى تبديل البرامج في التلفزيون والاذاعة كلما شن العدو واحدة من هجماته فلا جدوى من حذف (العلم للجميع) واملاء فراغه بالصور المعادة من المعركة ولاحكمة في ايقاف المسلسلات التي يترقبها الناس لينفسح المجال أمام مسلسل (البيت الصغير) أو احد افلام الكاوبوي أو فلم متهريٍ من افلام الحرب الروسية أو الأمريكية: روّحوا القلوب ساعة بعد ساعة فان القلوب اذا كلّت عميت وغالبية الناس لاتستيطع ترك بيوتها من اجل رؤية فلم في السينما واذا فعلت ذلك مرتين في الشهر فلا تملك الا التلفزيون في بقية ايام الشهر ليسليها. والناس في الداخل غير منشغلين بالحرب الساخنة حتى يكون تفرجهم على مسلسل مصري كاسراً لعزمهم في القتال ويكون فلم الكاوبوي مثيرا لبسالتهم. ثم ان الأسراف في الضغط على الاعصاب بتعريضها لامتحان الصبر عن سبيل عرض بضاعة واحدة عليها يوما بعد يوم شيٌ ترفضه المصلحة المستهدفة نفسها اذ ان الاستجابة المألوفة في هذه الاحوال هي سد التلفزيون للخلاص من الملل.

لاخطورة ولاضرر ولاحرج في الابقاء على الاحوال المعتادة في الأعلام المراي والمسموع مع ملاحظة تنوير المشاهدين والمستمعين بما قد يستجد او يحدث على الجبهة في اوقات الهجوم ولابأس من اضافات وتبديلات تقتضيها طبيعة الظرف على الاتطغى على البرامج المقررة. ان الضرر يأتي من ابقاء اقتصادنا في بعض جوانبه بل في كثير منه غير ممنهج على ضوء مقتضيات الحرب. فاذا تركنا منها ماهو اقتصاد بحت يمكن ان يخطيٌ فيه الناس من كل الدول واستقطبنا الاحوال التي يغلب فيها المزاج والأستجام والترف على جانب المصلحة العامة بل جانب الاقتصاد نفسه وجدنا بيدرا من باقات الذرائع والأسباب الهشة التي يمكن خذفها دون ان يكون الضرر

لحق احدا الا المستفيدين الطفيليين.

كان جميلا ان يسمح بالاستيراد للحساب الخاص ولكن ليس جميلا ابدا أن يبيع المستورد بضاعته على هواه فيأتي ربحه، على مأسمع، اضعاف اضعاف رأس المال. ليس من المعقول ان تباع البضاعة المستوردة من قبل الحكومة بعشرة دنانير وان يبيع المستورد البضاعة نفسها بمائة دينار ولنا جبهة مشتعلة تتساقط في لهيبها فلذات اكبادنا منذ ثمانين شهرا وقد يستطيل الثمانون الى مائتين: أليس للضمائر صحوة؟

ام نعيش في غابة بعض سكانها (يأكل لحم اخيه ميتا)؟ واني لاحلفن بكل عزيز في الارض ومقدس في السماء لاافزع ولااقرف من ربح حرام يعب منه الشخص الفاسد الضمير بلا أرتواء ولاانتهاء بقدر جزء من الف جزء من أساى على عدم وجود انصاف أو اي معنى من معاني الانسانية والرحمة والشرف والكرامة في هذه المفارقة التي يفقد فيها الشباب روحه ويشمل فيها أصحاب الطمع بالحرام والسحت والدعارة في اختيال وازدهاء: ليسمع هؤلاء السادرون في غيهم ومن كانوا مثلهم عائشين كالعلق على دماء الضحايا في شتى الميادين والحقول وبكل الصور والوسائل الخارجة عن اوهام البسطاء، ليسمعوا نصيحة تفيدهم في قابل ايامهم.

عندما تضع الحرب اوزارها يستأنف الجيش العراقي بقيادته المطلعة على كل شيء الجهاد الأكبر في الداخل فيسأل كل حرامي عن حرامه: من اين لك هذا؟ سيخرج لهم كتاباً كان منشوراً.. وسيشهد عليهم كتابهم بمدى الفرق الذي يظهر بين ماملكوه قبل كذا سنة وما تضاعف الف مرة خلال كذا سنة فيستخرجونه منهم ومعه لسانهم من قفاهم انتقاما لدم الضحايا وخراب العمار وبوار الأثمار وشرف الوطن وكرامة انسانه. أيحسبون أن يتركوا سدى؟ فليرفقوا بأنفسهم وبأبنائهم وقرابتهم الذين شاركوهم الحرام على قرب، وليخرجوا ثرواتهم، وليكن ذلك في السر ستراً للفضيحة، ويعيدوها الى خزينة الدولة فمن كان منهم يملك مائة مليون دينار أو خمسين أو

عشرة فليستبق منه مليوناً واحدا فقط يكفيه ويكفي أكلة الحرام من بعده حتى يطوي الزمن صفحتهم أو يمحو ذكراهم.. ان مليونا واحدا يعطيه في السنة بلا تعب ولا مخاطرة سبعين الف دينار بالفائز القانوني في البنوك وليكن ان ماتبقى منه بعد الضريبة هو اربعون ألفا افلا يكفي ذلك؟ كل دينار من هذه الاربعين ألفاً بمائة روح من مثل روحه التهمة الملتهمة التي ترجمت دماء الصحايا الى ذهب وفضة في خزائنها المشبوهة. ليس من شك ان مايتحصل من عملية كهذه التي تعتبر تكفيراً عن الذنوب في جهة من جهاتها سوف يكفي تكاليف الحرب لأكثر من سنة كاملة ويديم جبهتنا قوية بالسلاح والعتاد حتى ولو لم تحصل الدولة على شيء من النفط وغيره، فلتكن هذه الحسنة كفارة من أولئك لذنب عظيم لايكاد يغتفر الا في ميزان من وسعت رحمته كل شيء. ومبرر الغفران في قبول الكفارة منهم هو ان خلوص نيتهم في اعادة ماكنزوا في الحرام بكشف ثروتهم وعدم تهريبها الى الأقبية مشفوعاً بما سيؤول اليه اموالهم المعادة من حماية ارواح شبابنا ومن تقوية خطوطنا يعتبر احساناً في بؤرة المركز من اساءتهم فهو من قبيل جبر الكسر ولحم الفطر ورأب الصدع وسد الثغرة وليس كالتعويض الاعتيادي الذي يراد به سلوان الأذى فاذا تأخروا الى مابعد الحرب فقَدَ عملهم تبريرَ الغفران واعتبر من قبيل رد المال المسروق بل سيكون استعادة له دون ان تكون لهم نية خير في اعادته..

الاسترشاد في هذه المسألة بالحكمة التي تقول: ان الله يمهل ولايهمل هو ما اراه السبيل الوحيد الذي يمكن سلوكه فاذا استطاع غيري ان يرى سواه فقد خفي ذلك عليّ.

ربما كان مما لايسوغ ترك ذكره أن تسمية حربنا بالقادسية الثانية فتح الباب للاستفسار من المتفيئين ظل الأمان والراحة والدعة في داخل الوطن وعلى مبعدة من اخطار الحرب ماوجه الشبه بينهم وبين الصحابة الباقين في يثرب حول عمر ابن الخطاب يقضون ليلهم ونهارهم في ترقب احوال المعارك وفي العبادة الممزوجة بطهر الروح وطهر اللسان وطهر الذيل مبتهلين الى العلي القدير

طالبين إنعامه على المؤمنين بالنصر على عدوه وربما كان غداء احدهم نصف رغيف وعشاؤه نصفه الثاني مع شربة ماء تلين من يبس عجينه وتبل الريق حتى لايغص بما يبلع. ان احدنا أصبح لايستريح للقيام بالعمل المأجور اذا كانت السيارة الفخمة التي تقله على حساب الدولة ذات خلل بسيط في جهاز تكييفها فأين وجه الشبه بين هذا وبين الجهاد في القادسية الأولى على القدمين في قيظ الهاجرة وقتل الفيلة بالرمح والهراوة؟ ان جيشنا قضى في البذل حتى الآن مدة تزيد على السنة لقاء كل يوم من أيام القادسية الأولى فأصبح اختلال النسبة بين تفاقم التضحية على الجبهة وتضخم الراحة في الداخل كبيراً بين الكفتين. لاعوض عند أحد يتقدم به لمن استشهدوا وأصبحوا اكرمين إلا في احترام ذكراهم بالتصرف اللائق لا بالكلام الذي تأتي بعده الموائد والولائم ومافي حكمها. والكلام يشمل بالدرجة الأولى إلى الدرجة الخامسة ومابعدها أولئك المتنعمين الكبار ذوي الدخول الضخمة الفخمة القادرين على جلب المطاعم والمشارب من أقصى الأرض وتنويع المباهج والبهارج حتى التخمة فلا اعتراض من أحد على العائش من كد سواعده يصرف كسبه فيما تشتهيه نفسه ولاضرر أيضا من توسيع دائرة المسامحة حتى تضم شاعراً أو فنانا أو خطيبا أو أيا من أصحاب المواهب المماثلة بأخذ الاجر على تمجيد معركتنا ويضيف به شيئا الى شهرته ثم يمضي الى حيث تطيب نفسه ويصفو مزاجه. فالمأخوذ بنظر الاعتبار الا يحصل استخفاف بمشاعر المفجوعين في انفسهم أو في اعزتهم وان يرتدع المعتز بالأثم عن فرض نزوته على صبر الحزانى واليتامى والثواكل. وحين نذكّر الناسين بالقادسية الاولى فذلك لان القادرين على نسيانها بالغرق في صنوف اللذاذات المشتهاة يذبحون القادسية الثانية باصرارهم على تحدي المشاعر العامة والخاصة والالتواروا عن الانظار في مباذلهم أو غادروا العراق الى حيث يمارسون هواهم على هواهم أو فعلوا اية فعلة اخرى تستر عوراتهم. انه لمن السفاهة المخجلة والتفاهة المقرفة ان يختال انسان من البشر على بني قومه ويستذل احدا في كرامته ويستهين

بمشاعره لالشيء الا لانه قادر على ذلك: ﴿إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا.

اولئك لاخلاق لهم ولايحسبون من البشر الا بأجسادهم وهم من نمط الطفل الذي قتله صاحب موسى في رواية القرآن الكريم لخشيته من ان يرهق ابويه طغيانا وكفرا. فالغارقون في السفاهة حين احاطة النار ببلدهم والمستغلون فسحة الاثراء المحرم على مشهد من الوف الأسر المفجوعة في شهدائها كانوا أحرياء أن يولدوا ميتين أو ان يمنع القدر حَبَل امهاتهم بهم فقد أرهقوا امتهم طغيانا وكفراً. ولاحول ولاقوة الا بالله.. فياربّ العباد والبلاد إنا لانسألك رد القضاء، فقد نفذ سهمه بمروق أولئك عن قيم البشر. ولكنا نسألك اللطف فيه بكفّ استخفافهم بمشاعر الناس ففي يدك أن تهديهم ومن صالح عبادك ان يُرد عليهم بعض خسارتهم في اولئك بصحوة احساسٍ بهم والرجوع الى انسانيتهم فعسى ان تلين قلوبهم كالحجارة التي وصفها كتابك بان منها مايشّقق فيخرج منه الماء. ألم يكف وطننا ان مالأتْ دولٌ عربية عدوه بجل طاقاتها ليمالئ الجانحون من أبنائه ذلك العدو المستقتل بجرح المشاعر وثلم الهمم عن سبيل مامرت الاشارة اليه من الشذوذ والمروق والتحلل والأستهانة؟ وافتقدنا الهمم المرجوة من دول عربية تأتي مصلحتها من سلامة العراق وانتصاره ولا اخوض في ذلك لعدم الجدوى منه فليس منتظراً ولامفهوماً ان تحرك كلمة عابرة في مقال عابر ساكناً ماحركته مصالحه على مدى ثمانين شهراً فالدنيا في أوضح مظاهرها معادلات سياسية واقتصادية تتوازن على عوامل يقدرها صاحبها وكثيرا مايخطئ فيها حتى يتسع الخرق عليه. قال الشاعر المصري عن مصره ناطقاً بلسانها:

انا ان قدر الأله مماتي

لاترى الشرق يرفع الرأس بعدي

فماذا عسى تفعل العروبة بدون العراق؟ لو جمع كل الجهد العربي والدم العربي المبذول في دعم العراق لما تساوى مع ماقدمه كردي العراق من دم، وليس له مال يقدمه، وتوزع دمه على

البطاح والجبال بلا تفريق بين تراب وتراب. ولسنا في ذلك نريد تسجيل فضل للكردي يدخل في باب التبرع فانه يدافع عن عقر داره ولكن المفارقة تنبعث من دعوى (من المحيط الى الخليج) والمصير العربي الواحد فمتى يراد لهذه الشعارات أن تنقلب الى عمل: الستم تقولون ان كله وطن واحد لافرق بين تراب هذا وهذا؟ الستم تقولون في تصريحاتكم عندما تزورون العراق أنكم في بلدكم وبين اهلكم وعشيرتكم؟ فالبلد والعشيرة والأهل لها حدود ملتهبة فهلا شاركتم في اطفائها؟ اطفئوا نار بلدكم يامنصفين كما يطفئها الكردي!!

وكل حرب وانتم بخير

لعنها الله ولعنها اللاعنون الى يوم يبعثون.

والف الف حسرة ودمع وتفجع على كل قطرة دم طاهر ثائر مكافح تبتذله يد السفاهة والجهالة والطغيان وهو أعز مانملكه وأشرفه وأكرمه فسلام عليك ايها الشهيد السابح في دمه وتحيتي اليك ودمك نار في لب احتمالي..

لقد نفض الليل منك اليدين

وادرك فيك النهار الوطر

وانشغل عنك المنشغل بمنافعه ومباذله وحاك المستغنى عنك خيوط النسيان حول اسمك ورسمك ورقص في غمرات بسالتك وشهادتك أنماط وأشتات على زجل الزجال ودجل الدجال ومثل المثال في خليط متفاوت بين الأقصيين من نقاء ورياء والزّمنُ ماضٍ بالرؤيا والذكرى من خيالك عبر السواد والبياض من وجهي الليل والنهار الى حيث يستحيل كل شيٍ في البعد القصي سربالا شفافا من ضباب فلا تدركه الأبصار. فاذا استبد الشحُ بالأنفس فأنكر خلّ خلّه وتفاقم الجحود حتى وقع المحال من سلوان أبويك وأخويك وسَهُلَ هجرانُ خليليك من خطيبة أو حبيبة لحرارة وجدانك، انتفضتَ ياشهيد في نبضي وانصببتَ الى قلبي وثرتَ بوعيي فانفجرتَ بركانا

وتدفقتَ إعصارا يستفز عليك لوعتي ويجدد فيك حرقتي وينفخ جمر حزني عليك متقدا في احنائي. لاقرار ولااصطبار. فأنت همي الاول وشغلي الأشغل وجرحي الأنزف في كل ماناب من خسارات أو خاب من انتصارات. فلكل نزول صعود وبعد كل كبوة نهضة إلا فيك أنت شهيدا وأسيرا فلا يعوض عنك عوض ولاصارفَ الى عديل يملأ فراغك.

لقد حلوتَ وغلوتَ وعلوتَ حتى صرتَ في سدرة المنتهى من حضن الفداء اكرمَ عليّ ميتاً منك حياً فأنت في عبث الفجيعة بمعياري أحَبُّ اليّ منك ثم انا بعد ذلك اكثر حبا لك منك وانت الأحب. وتطاردك روحي في مطارح الحب ايغالا وتصعيدا حتى تبعث حيا أو تعود حرا فتستقيم في ميزان فهمي بشرا سويا كسائر البشر.

ماذا اقول وماذا يفيد المقال وقد محت فيك آيةُ الموت آيةَ الحياة ولفظ سراجك آخرَ خفقته منضماً بها جفناك على بصر عينك في انسانها الممتلئ من جمال الثري وبهاء السماء على مسمع من هدير الفناء يصارعه البقاء على صدر وطنك! كيف أُبينُ فيما لايُدرك مما خامرك من مشاعر عصية على فهم صاحبها وهو يودع بها الكون ويستودعها المبهم من امل لم تعد ذراعه المبتورة تقوى على ضمه ولاساقه المنثورة تسعى به اليه! لاأجد سبيلاً الى الابانة في غير همس قلبي المرزوء بك الى روحك المنبثة في كياني ارتل به ابتهالي: بقدر الجلال عمقا واتساعا للحظة موتك وعلى مقاس الضخامة لمضمون النبل في فدائك انت كبير كبير في وعيي عميق عميق طيّ شعوري حبيب حبيب الى حشاشتي ياأطهر نطفة اجتنها الارحام. يارسول الارض الى السماء ياشهيد..!!

نفضت عنبرة عن جبين الشمس

قد ينفرج من تكشيرة الايام فجر بسمة ويفترُّ في تجهم الحياة ثغر بُشرى والقلوب كالعشب الأخضر ترتقب النسمة العذبة والهبّة الرطبة تروّح بها نفسها ساعة بعد ساعة ..

وكان هذا المهرجان احدى تلك السوانح المزدانة بالزهر والثمر ضمت وجو ها نيّرة تلتقي على موعد من الحق والخير والجمال فليس في الوجود بضاعة كالمعرفة رقّت وتنزهت ثم صفت وشفّت في سموها وقدسيتها وبراءتها . فاذا أجهد المكابر قدرته في العثور على ما هو أكرم من المعرفة المكتسبة تناهي به الجهد الى الاشراق الذي يتوخاه المنشغل بما وراء الطبيعة حيث ينكشف الكُنهُ للبصيرة بلا واسطة فاذا أبصر وعاين واستبان فقد أضاف الى المعرفة زيادةَ غنىً محسوبةً لها لا عليها وفضلَ غلّةٍ يكتالُها البيدرُ المهيل ولو بلغت العبقرية بالألمعي اللوذعي فعثر في سائر الاحياء على وسائل للوعي تعين فهمها الغريزيَّ على مصاعب البقاء لشكرنا سعيه واكبرنا كشفه رافداً لمجمل العلم كان خافياً . فقد يأتي جهبذ الغد بابتكار وسيلة في طوايا المجهول تترجم أحاسيس البُهم الى لغة مفهومة في قاموس البشر فليس بالمعرفة عسر هضم أو تصلب شريان كي تعيى بالمحسوس أو بالمفهوم أو بالمستخلص أو بالمستكنه أو بالمستشعر او بالمستسرّ الذي يطلب الف سنة من الفكر والنظر والتجريب ، ويا ليت ان للجماد مسحة روح ولمسة حس تحتجب اليوم من فالق الذرة ومرتاد الفضاء فقد يطلع عليها في غدٍ مرتاد الذرة وفالق الفضاء فيختصر به المسافة الفارقة بين المعرفة والمطلق الى حد الملامسة تكون بعدها الملابسة . فالمعرفة مراح بلا انتهاء تنداح فيه انسانية الانسان على مقاس الازل والأبد زماناً واستطالة البعد السحيق مكاناً ، لولاها لا نضمّ الانسان في مثاقيل من اللحم والعظم يتعثسها دود الأرض .

ولئن كانت المعرفة في أظهر معانيها هي ضد الجهل فهي في واحدة من أظهر طبائعها طرف المناقضة للحظر والتحريم والتحجيم فهي لا تعني أقل من الاحاطة بكل شيْ يمكن ان يعرف . ولنا ان نتمثل ما سيتحقق من العلم في عشرة الاف سنة قادمة اذا اطردت المعرفة بلا معيق . على

أنها ستتجاوز المعيقات كلّها عبر الزمن الذي لا يعيقه شيء فاذا كانت العشرة من الآلاف دون الكفاية لانطلاقها الحركان لها في الزمن سعة المائة الف والمليون سنة ، بل انها ستبلغ مديات من العمق والاتساع والتسارع تتجاوز بها مفهومنا للزمن نفسه : انها ستخلف وراءها سرعة الضوء فتسخر الزمن مطية قد تبطئ وتبطئ حتى التلاشي وتسرع وتسرع حتى تخلّف نفسها ظهرياً . والفكر في يومنا عاجز كل العجز عن تخمين امكانات المعرفة في الفتوح والكشوف وفي النقض والتركيب وفي الاستيلاد والتعقيم وفي التمكين والتعجيز وفي الحذف والاضافة وما الى هذه المعاني الشاغلة لكل المسافة بين اللاشيء واللانهاية وهو في هذا اعجز من انسان كهف (شانه‌دهر) في تنبؤه قبل ستين الف سنة بالمركبة الفضائية فاذا كان في الانتماء الى المنهج المتساوق مع معجزات المعرفة مستقبلاً شرفُ الاندماج في سياق الحق فلنؤمن إيماناً عميقاً بأن أخطر معيق يباعد بين الانسان وبين اليوم الموعود لسيطرة المعرفة على دنياه هاديا وحاكما ومنظما هو ضيق النظر بمعناه العريض الذي يشمل كل انواعه ومصادره . أما عسر الطلب واستعصاء الهدف وبعد المنال في دقائق الطبيعة واعاصيها واقاصيها فهي صفات لصيقة بمضمون التقدم في كل ميادين المعرفة فلم يكن قهر الجاذبية أمرا خارجا عن فكرة الوصول الى القمر ، ولكن فرمانا كهنوتيا أو دنيويا بتحريم الطمع في السماء هو المعرقل الطارئ الذي كان خليقا أن يجهض الفكرة او يعيقها في التنفيذ الى اجل يقصر او يطول .

ضيق النظر اعيذك منه بنبض الانسانية في دمك ونور الهداية في عصبك : فمن خلال ضيق الرؤية يتسع الباب لشر البلاء يحيق بالحق وصاحب الحق وحامي الحق . وعلى قدر ضيق النظر يكون فخر صاحبه بالظلام الذي يكتنفه ، ذلك ان المدى المحدود لمجال فكره يحصر معقولاته في أوليات مسطحة معدودة ترشح له يقيناً مفروغاً منه بصواب قناعاته الباطلة .

ولهذا البلاء انواع تعددت باختلاف المصدر فمنه ما هو وليد نقصٍ الفهم يعسر شفاؤه ، او

في التحيز ضد الآخرين فهو واحد من المواضيع الخطيرة المحتجبة وراء استار غليظة من التمويهات المضببة بالتضليل وبدخان المتفجرات ترتد دونها النظرة العجلى فاكتفى فيه باقامة مفارقة يصورها سؤال ذو شقين : ما الذي قطفه الكردي والفلسطيني من ثمرات التذابح المستند الى تبرير التفرق بوجود خلاف في وجهات النظر الايديولوجي وما الذي ما قطفه السويدي والنرويجي من بركات كف الاذى وأحترام (الرأي الثاني) بغياب الفلسفات التي تكتشف العدّاء في ملتقى المصالح ؟

وللسائل ان يسأل اين الارتباط بين ضيق النظر في اطوار النضج وبين التحيز للذات ! اما ان التحيز للذات مرتبط بضيق النظر ، فلولا ان الاستئناس بأسلوب التصرف واعتياد موالاته من شأنه ان يُحيل مره عسلاً وسمه ترياقاً لكان اوضح من الواضح ان التحيز لوجهة النظر الخاصة لدى سائر الاطراف في المصالح العامة الى الحد الذي يتعذر فيه الاتفاق على أمثلها واوجهها يؤول بهم الى بناء المجتمع على القلق والتوجس وفقدان الثقة وشيوع الخديعة بسبب تعاكس وجهات النظر وتضادّ العمل لدى الأطراف المتباينة . وليس في الوجود الاجتماعي تصرف ادل على ضيق النظر وتبلد الحس من تفيؤ بيت يستند سقفه الى حيطان أقيمت على رمال ناعمة ، فما أحراها ان تقام على الماء ! ! ولقد حاولت ان استشف مأتى (وحدانية الرأي) في الشعوب النامية ورسوخها حتى نجد اي طرف في الجبهات الوطنية يستأصل بقية الاطراف لحظة وصوله الى الحكم فوجدت

أن ضحالة تجاريب هذه الشعوب في الديمقراطية وحرية الرأي ، وهي عنوان الحضارة في أي بلد ، أسلمتها الى حكمة من حكم الكهف والغابة تقول : اتغدى بك قبل ان تتعشى بي .. وانا في هذا اجامل اصحاب شعار الحل الجذري كفلسفة للنضال فهو يقود بدوره على وجه الضرورة الى وحدانية الحل و وحدانية الحلال . أما سبق العشاء بالغداء فهي حكمة موروثة متبعة من احقاب الزمان تصدق ، ويا للأسف ، في التعامل اليومي للشعوب النامية ، ولكن طلائع الفكر والنضال كانوا أحرياء ان يتجاوزوها الى اسلوب أليق بروح العصر المتمثلة في التجارب البيضاء من لطخات الدم لشعوب بلغت ذروة الحضارة علماً وسلوكا ، وما كان الذكاء يعوز اولئك الطلائع لافراغ الحلول الجذرية في صيغ جديدة تخضعها للمنافسة السلمية وكفى الله المناضلين شر الانتحار . ولكن يبدو ان زخم الحضارة في عالمنا الثالث وما بين الثالث والرابع وما بعد الرابع أضعف كثيرا من ان يَستطيع توسيع سم الخياط من الأفكار السلمية والديمقراطية حتى يلج منه تراث الالف السنين من فلسفة سبق العشاء بالغداء الى مناخ صحي واسلوب سليم لاعشاء بشرىّ فيه ولا غداء . غير ان حضارة الفكر الديمقراطي تُدانُ في عالمنا ابتداء بتصويرها رشحاً ونضحاً من أطماع المؤمنين بحرية الاثراء الحرام ومص دماء البؤساء . ولقد استعملت الطلائع هنا ذكاءها في القضاء على حرية التعبير وحرية التصرف بضربة واحدة عن سبيل ربط الحريتين بخيط واحد لعين من أتهامها بالأساءة الى المصلحة العامة وكأن الحرية مارد من أيام سليمان يجب حشرها في قمقم مختوم وواقع الحرية نقيض ذلك في خط مستقيم فهي بالدرجة الأولى حتى العاشرة ضمان للضعيف من أستبداد القوى فأن اعدى اعداء حرية الرأي واستقلال القضاء هم الأقوياء القادرون على الظلم والاعنات . على اني لست في حال من يهم بحمل هموم الدنيا على عاتقه ولا يبلغ بي التفاؤل الساذج مبلغ التعشم في زوال القهر بكلمة قائل أو نظم شاعر أو حكمة واعظ أو إيحاء القطع الرائعة للفن الجميل . ولقد سقت كلامي في شارع عريض من الخطرات التي تقع

لكل الناس ودرت حول التعارض بين سعة المعرفة وضيق النظر المتفرد كي أمهد ليسر الولوج في زقاق جانبي أخترت ذرعه في هذه الكلمة يتكوّر فيه هم كردي صغير دلالتُه أكبر من حجمه بكثير فأن من صغائر الأمور ما هو في مراتب الخطورة بمثابة الخطوة الأولى في رحلة الالف ميل ولن يصعب تبيان ذلك في سياق الكلام .

همى الكردي الصغير القابع في عطفة مغمورة من تقاطع شوارع الفكر والتأريخ والسياسة جدير كل الجدارة باعتبار هذا المهرجان وانتباهه فما انتظم عقده الا ليسمع نأمة ويحس خفقة تنبعث من مكامن الشعور الكردي معبرةً عما فيه .

ان الذي عانيته بفكري وفي أحساسي من هذا الهم الصغير كان غير يسير فقد ثقل عليّ الأمر بذاته وازداد ثقلا في أيماآته ودلالاته ذلك ان حبراً بحرا في مراتب الاجتهاد يُكال له الاتهام بتسرع ودون مبالاة لمواجع الاتهام على غير ذنب بدر أو خطأ صدر إلاّ أن يكون التحايل على الكارثة الماحقة و الالتفاف حول المحنة الساحقة بما يحفظ الأرواح و الأعراض وينقذ البلاد والعباد ذنباً وخطأ لهوَ أمر حقيق باستيقاف الضمير لموازنة إشكاله على ادق معايير المعرفة إصابة وألطف لوامس الحس إنصافاً فكيف يكون وقر مشكلته على طالب الحق اذا حصل التكاثر من عامة الكاتبين والخائضين من المستنيرين بالثقافة المعاصرة الى قبول التهمة بلا مناقشة وإدانة البرئ بلا توقف حتى كأن الاساءة الى مثل هذا الحبر العظيم واجب ألقاه التأريخ في ذمة أصحاب الحلول الجذرية والمؤمنين بالخط الفاصل بين اليمين واليسار لحكر الشر كله في جهة واستصفاء الخير كله في جهة . والواقع هو انه لم يكن في القاموس الكردي على عهد العلامة محمد الخطى ، وهو المقصود في هذا الاستطراد ، قد برزت مفاهيم اليمين واليسار واساليب الحلول الجذرية والأصلاحية ولا كانت شاعت أو تراءت ثقافة أوربية في الأفق الكردي تقسم الناس شيعاً وافانين في تقويم الاحداث الخطيرة التي كان البت فيها من أمتياز القائمين بها حتى تتباين الآراء بشأنها ما بين تبرئه

وادانة فما كان في بال أحد من الكرد ان يتهم الخطى في زمانه او فيما بعد زمانه حتى فواتح هذا القرن حين بدأت موازنة الأمور الماضية على معايير حديثة لتقويم المصالح فأصبحت الاحكام تصدر لاحقا في المضامين الاجتماعية والأحداث التاريخية على هدى الافكار المستجدة فإنقلبت الموازين في كثير من الاحيان حتى غاصت في الغلط والشطط وقل من المثقفين من التفت الى ان ذرع الماضي بمقياس الحاضر هو من قبيل قياس فجاجة الطفولة الى النضج النسبي لطور الشباب . وكان من نصيب الكردي ان تكون الفكرة القومية أسبق إليه وأشكل بمعقولاته من الافكار الأخرى المولودة في أوربا فقد تأخرت الطبقية الى ما بعد الحرب الثانية . لذلك حصلت مراجعة معطيات تأريخية وتراثية كثيرة بنظرة مناوئة ميالة الى الادانة وفقدت قيم موروثة مكانتها في قلوب أصحاب الثقافة الجديدة وحصل فيها النزاع بين انصار القديم وأنصار الحديث لا داعي للتطرق اليه . فاذا شاعت الثقافة الطبقية اختلفت الآية بمقدار اختلاف الميزان القومي عن الميزان الطبقي فسهلت ادانة المواقف القومية التي لا تندرج في الأممية من وجهة نظر حَملة شعاراتها وعُزيت عيوب البرجوازية والاقطاع الى الفكرة القومية نفسها باعتبارها بنت هذه المراحل المحكومة بالموت وصار القومي الكردي الذي آمن بالطبقية الى جانب ايمانه بالقومية يجد الصعوبة في المشي السوي الذي لا يميل شقه الحامل للشعارات الكردية وحوصر من حيث لا يدري في زوايا الانعزالية والانفصالية التي تعني عند الاممي فصل الطبقة العاملة الكردية عن الطبقة العاملة لعموم الشعب الذي يشاركه الوطن الواحد وبهذا المنطق مثلاً أتهمت جمهورية مهاباد بالانفصالية وليس لأنها كانت تنفصل عن حكومة عموم ايران فأنه ما خامرت أحداً من القوميين الكرد المؤمنين بالطبقية والأممية ان يتهم المانيا الديمقراطية بالانفصالية والأنعزالية لرفضها الاندماج بعموم المانيا ، فقد كان الانتماء الأممي هو الأساس في التقويم . والأفكار الجديدة هذه التي غزت العقل الكردي تنامت وتمادت حتى وصلت بغالبية الناشئة الكردية في أوربا والكثيرين

منهم في مواطن الكرد بالشرق الأوسط مبلغ ادانة كل الثورات القومية الماضية لخلوها من المضمون الطبقي وأحتكار الاقطاعيين ورجال الدين لقياداتها ، بل اننا سمعنا العجب الذي لم يخطر على البال من قولهم انهم سيخلقون البرجوازية الكردية من أجل هدمها والوصول بعدها الى الأشتراكية مصداقاً لنظرية المراحل التأريخية .

مثل هذه النماذج المتناهية في السذاجة بنهايات القرن العشرين خليقة ان تزيل الأستغراب من سذاجات مثلها داعبت العقول الكردية في اوائل القرن فأساغت لديها المبادرة الى ادانة العلامة الحظي بلا تمهل . وإني لآسى على غرق اجيال كردية متعاقبة في متاهات الأفكار العائمة المنقطعة الجذور عن أية تربة منبتة أضعاف اضعاف أساي على تعرض أحد أفذاذ الكرد الى أتهام متسرع فما خلا التأريخ قديمه وحديثه من أمثلة أخرى كثيرة مؤسية وبعضها فاجع الا اني لا اتوسع على غير طائل في تشخيص الادواء و وصف الادوية . وهذا الاستعراض السريع لنوع التحديث في العقل السياسي والفلسفي الكردي بشكل عام كان من باب الشر الذي لابد منه توصلا الى الحد الادنى من المنطق في لفت الاسماع التي توصل اصحابها الى الاحكام النهائية في قضايا الساعة والمستقبل وما كان من الماضي القريب والبعيد ومن ضمنها مسألة ادانة الخطى المرحب بها في كل اليسار الكردي المنقسم على نفسه فان من حقي ان أطمع في بعض الانتباه اذا وضعت هذه المسألة الى جانب كوميديا خلق البرجوازية بنيّة هدمها لان قوة اليقين في كلتيهما لدى المؤمنين بصواب فكرتيهما متولدة من معين ضحل قعره أظهر من وجهه .

محمد الخطى المنسوب الى قرية (خەتى–خَتى) في منطقة بالك براوندوز واحد من أعلم أهل زمانه بعلوم الأسلام وهو تلميذ علامة عصره الأوحد الذي أقر بأولويته اساطين العلم ، محمد ابن ادم من بالك نفسها ويكفي للتعريف به ما قاله العلامة فصيح الحيدري في كتابه (عنوان المجد ..) من انه اذا اندثرت علوم الكتب لكان ابن ادم حقيقا ان ياتي بمثلها من حفظه . جاوز علم ابن

ادم حدود التصور كما جاوزت تآليفه حدود الحصر . وكان الخطى أبرز تلاميذه وأقربهم الى مكانته العلمية . وكان ابن ادم المرجع الديني الأعلى في اوائل امارة محمد باشا الراوندوزي أمير امارة سوران ، الكريم العين الملقب بالأعور ، وبينهما شرط متفق عليه بألاّ يتدخل احدهما في شؤن الآخر . ولكن سرعان ما دب الخلاف بينهما . والبديهة تحكم ان سبب الخلاف هو استحالة سكوت ابن ادم على أمور وقعت في ميدان الحكم لا تتفق واحكام الدين ووجه الاستحالة هو كون ابن ادم في مقام القاضي المطلوب منه بيان رأي الشريعة فيما يقع ، فانسحب من راوندوز بأمر من الباشا الى قرية ولزه منصرفاً الى التدريس والتأليف . وقرأت في سلسلة الذهب لابن ادم المدون سنة ١٢٣٤ الهجرية ذكره للخلاف وسكناه بولزه منذ بضع سنين . فأذا كان اول تسلم الباشا للحكم في سنة ١٢٢٨ على أصح الأقوال وانزواء ابن ادم واقعا قبل ١٢٣٤ ببضع سنين فلا يبقى في فترة السنوات الست هذه غير سنتين ، على أبعد تقدير ، استطاع صبر (ابن ادم) خلالها ان يوسّع لأمله في تقويم ما يراه معوجا حصل بعدها انقطاع الشعرة . وصار العلامة الخطى بعد ابن ادم هو المرجع الديني بترشيحه من ابن ادم نفسه بالاضافة الى تزكية علمه له . و دام الصفاء بعد ذلك بين رأس الحكم ورأس الفتوى في راوندوز على أتم ما يمكن . وأرى أن أكثر الفضل في دوام الصفاء يرجع الى توسع الخطي في أجتهاده بما يرجح الأخذ بالتيسير من أبواب الشرع المختلفة فقد يكون تحمل الضرر الأخف في كثير من الأحوال بترك التحنف المبالغ فيه أقرب الى روح المصالح المرسلة ذلك أننا نعلم من أمر محمد باشا في عهد العلامة الخطي ما علمناه قبل ذلك من حزمه في ادارة السياسة والتمسك بمصلحة الحكم والتشدد مع اعدائها والترخص في انزال العقوبات الرادعة . ويصح القول ان صفات محمد باشا في الشدة والقسوة بحسب اقتضاء الأحوال تأكدت في أيام الخطي بأوضح مما كانت بدايات حكمه وضيق ساحة امارته واليسر النسبي في تعقيدات احداثها الأولى خليقةً أن تظهر منها كل مقاديرها . وهذه حقيقة

نستشف منها بل نطالع فيها مدى أقلمة الخطي علمَهُ النظري وفهمهُ للمصالح مع ما هو من ضرورات الواقع وطبائع الاشياء حرصا منه على حبس المعاملات وسائر التصرفات ضمن اطار الشريعة ولو اقتضى ذلك منه تأولا وتوسعاً . وإني لاعتقد بكون الخطي صورة لابي يوسف تلميذ الامام الأعظم ، في تطويع علمه و اجتهاده ودرايته بسبل التأويل الى ضرب من المرونة في القياس تستجيب لمستلزمات واقع متسم بالتعقيد ومهدد بقوى مناهضة تبتعث المعارك تتصل نهاياتها ببداياتها وتخلق حالات صعبة العلاج قد لا يكفي لها مثال (المؤلفة قلوبهم) . ولربما كانت اجتهادات الخليفة عمر في حرفية التشريع بما يوافق روحه خير مساعف لرجل في مثل مقام الخطي مطالب بالحفاظ على مصالح الجمهور تنازعه فيهاقوى أكبر منه واحوال فوق متناوله . فياليت أن الأيام أبقت على فتاواه المحررة والشفهية فيما شجر بين الناس من تداع و ما كان منها ذا صلة بمصالح الأمارة والأمير أو ما جابه به حالات فيها خيوط من منافع يحميها أو يطلبها القاجاري والعثماني و ولاة من الجوار القريب والبعيد وأمراء تحيط ارضهم بارض سوران احاطة قد تكون حامية أو هادمة اذاً لكنا أحرياء ان نقع على بيدر من احكامه في مختلف الابواب يذكر بكتاب الخراج لابي يوسف . ولئن خلت يدنا من هذا البيدر فقد علمنا عن سبيل بقاء الخطي على رأس الفتوى والصدارة العلمية حتى نهاية عمر الامارة لاكثر من عشرين عاماً بلا خلاف بينه وبين الأمير تكييف الخطي لفتاواه مع مقتضيات السياسة العامة في الأمارة ونحن متيقنون من توسل الأمير بكل سعى تقتضيه سلامة حكومته وزيادة قوتها واتساع رقعتها ومنه ما كان متعارضا مع الولاء للخليفة العثماني من مثل اتصاله بالقاجاريين وتقوية روابطه مع ابراهيم باشا المصري الذي اوشك ان يقضي على الخلافة نفسها لولا تدخل الأوربيين على النحو الذي تذكره مصادر التأريخ . هذه الحقيقة المضيئة في سلوك الخطي واحد من الأدلة القوية المفندة للتهمة المنسوبة اليه كما سيتضح بعد هنيهات. مضت الأيام وتعاقبت السنون في عمر الامارة الفتى وهي تحمل

على نحو متصل بذرة التعارض بين طموح الأمير السوراني في تشكيل دولة راسخة الأساس وبين مصالح دولية كبرى لا تسيغ هذه الشوكة العصية في حلقها وتفصيلها مذكور في كتب التأريخ ولا يحويه هذا المقام بحال من الأحوال وآخر ما قرأته في هذا الباب مقال منشور في العدد ٤٣ لمجلة كاروان الصادرة في نيسان ١٩٨٦ تحت عنوان (الملا يحيى المزوري وسقوط امارة بادينان) للسيد عبد الفتاح علي يحيى ألم فيه حسب سياق الأحداث بالخيانة المعزوة الى الخطي فأكدها وأغلظ فيها حين كتب «وبعد أن أستسلم أمير سوران للقائد العثماني بتحايل من العناصر الموالية للسلطان العثماني وخيانة بعض أتباعه ومنهم مستشاره الملا محمد الخطي الذي رأى في محاربة الخليفة العثماني إثماً كبيراً ، وجه علي رضا باشا نشاطه نحو العمادية ..» وقد جاء تخوين الخطي في هذا السياق بمثابة قتل عصفورين في رمية واحدة فأجهز على المزوري والخطي معاً فتذكرت بذلك القصر و الجمع في الصلاة . غير أنه يسّر لي الدخول الى صلب الموضوع الذي اعاني منه فاني خلال كلامي لم المح حتى الان الى طبيعة الخيانة المزعومة بانتظار ان يتصل السرد حتى يفضي الى المقصود طواعية وقد افضى اليه في هذه الفقرات المنقولة من كاروان ويلاحظ فيها عدم التطابق بين القول بخيانة الخطي والتصريح بكونه قد (رأى في محاربة الخليفة العثماني إثماً كبيراً) فلكي يتم إلباسه الخيانة يجب تجريده من ثوب العقيدة أولا . وفيها شيء من الغموض في الكيفية التي تحققت بها خيانة الخطي للأمير السوراني والظاهر هو أن شهرة هذه الكيفية بين عامة الدارسين وكثير من السامعين كانت مغنية عن التوضيح في نظر كاتب البحث . فاقول من باب إتمام الفائدة لغير المطلع على تفاصيل المحنة القومية التي أُتهم فيها الخطي انه بعد أن أشرفت الجيوش العثمانية على مربض الأسد وأصبحت المواجهة التي كان الأمير يتوارى عنها ويتجنبها أمراً لا مفر منه فاما ان تحصل المعجزة بانتصار الفئة القليلة على الفئة الكثيرة وإما ان يحصل المنتظر من أكتساح البغي العظيم للحق الهضيم الكظيم صدرت فتوى شرعية من الملا محمد الخطي بتكفير من يقاوم جيش

خليفة المسلمين فانطفأت النار واغمدت السيوف ودخل الجيش العثماني مدينة راوندوز بلا قتال أو تخريب أو تقتيل .

هذا ملخص الواقعة وهي اذ يُخوَّن فيها الخطي لا يُلتَفت الى الملابسات والظروف واقتضاآت الحال وأحكام الضرورة ويحصل فيها تجاهل مطلق للعلاقة الحميمة بين الأمير والخطي لأكثر من عشرين عاما وتصم الآذان عن رواية تأريخية كانت شائعة حتى أوائل القرن العشرين وما تزال حية في واعية الذين تلقوها من الأجيال المنقضية وكانت متسقة مع أحتفاظ الخطي بمكانته العلمية ومقامه الأجتماعي بعد الفتوى دون ان يعلق بصيته شيْ مما يراد ان يلصق به من التهم والظنون في عصر الثقافة والنور والرواية تقول انه بعد ان اصبحت الحرب مع الجيش العثماني هي الخيار الوحيد وكانت نتيجتها واضحة للعيان بما لا يخفى حتى على الأرمد لم تبق مندوحة عن الاستجابة لعروض السلام المشفوعة بطاعة الخليفة التي كانت تتوالى من علي رضا باشا ممزوجة بكثير من الوعود والأيمان على بذله الجهد لتجنيب راوندوز واميرها الحيف والهوان فمال الباشا السوراني الى النزول على حكم الضرورة والقبول بأخف المحنتين . وكان من قبيل صون ماء الوجه والتخفيف من حماس الجيش الراوندوزي ووضع المشكلة في اطار من حكم الشرع الذي يوسع ابوابُ حلها بما قد يتفق مع الوعود المبذولة ان استقر الرأي في الجانب الكردي على صدور فتوى من المرجع الديني الأعلى في الامارة تحظر رفع السلاح بوجه جيش الخليفة ، فالفتوى صدرت بموافقة الأمير ولمصلحته ومصلحة المنطقة كلها ومانعة من الكارثة المحققة الوقوع وممهدة لما كان موعودا من بقاء الأمير في امارته ضمن هيمنة السلطة المركزية . والأدلة على ذلك موفورة تتعب محصيها :

فاول ما يقال في ذلك ان التهمة لم تنبعث الا بعد انتشار الفكرة القومية والرجوع على الماضي بمقياس زمان لاحق وتم ذلك في هذه المسألة بالذات على صورة من الفجاجة والضحالة أخرجتها

من أي اطار ممطوط لمصطلح اعادة تقويم التأريخ فهما يكن في هذه الاعادة من مزالق ، وهي كثيرة فانه من الصعب أن يحصل فيها مفارقة الحقائق والوقائع والدواعي ويتم تجاهل حكم التأريخ ووطأة الضرورة كما حصل في تجريد الخطي من ثوب فضله واحسانه بلا تردد ولا توقف وكأن ذلك نهزة العمر وحظ الحظوظ .

وثاني ما يقال انه لم تصدر اية فتوى طوال الأشهر السابقة على وصول الجيش العثماني الى مشارف راوندوز وحلول اليوم الذي يأتي بعده الويل اذا لم تتداركه العقول الواعية على صورة من صور الأمكان . فاذا كان غرض الخطي تكفير من يقاوم الخليفة بناءً على عقيدة دينية استوفت في المسألة اشراط التكفير فقد كانت هذه المقاومة ماثلة للعيان منذ مدة والتهيؤ للمصاولة بين جيش الأمير وجيش الخليفة أظهر مما يتطلبه نصاب العصيان والخروج على أمر الجماعة من جانب الأمير . وكان قد حدث قبل هذا في احوال كثيرة ما مر ذكره من توسل الأمير بصداقة اعداء الخليفة فكيف حدث ان أطلق الخطي فتواه لحظة وصول السكين للرقبة فمنعت قطعها ؟ أم هل ترون في صون الرقبة خيانة لها ؟

وثالث الأمور هو انه اذا كان الخطي مؤمنا في فتواه بكفر من يتمرد على الخليفة العثماني ، فانه يتجاوز كل ما لاحظناه من تأخر الفتوى عن أوانها الشرعي ، كان خليقاً به أن يأوى الى مأمن خارج حكم الباشا حيث يستخرج فتواه دون أن يُلقي بيديه الى التهلكة فهو أول من يعلم ما هو منتظر من قسوة الباشا مع الذين يريدون بدولته أذى . أما إذا كان ثمن الفتوى حطاماً من هذه الدنيا كما زعم خراصون سفهوا نفوسا وسخفوا ألبابا فقد سقط بذلك كل تعليل لبقاء الخطي مع الأمير حتى نهاية النهايات إذ يكون الثمن المدفوع في شراء الفتوى قد استبعد احتمال استشهاد الخطي بأرادته في سبيل العقيدة فلا يبقى بعد الارتشاء الا التوارى والخلاص بالجلد .

ورابع الأمور ما كررت بيانه من شدة حرص الأمير على سلامة حكومته واتساع طموحه الى

البسطة فقد كان اول شروطه على والده يوم تسنمه كرسي الأمارة عدم تدخل احد في اسلوب ادارته للأمور وسياسته للناس وكانت أولى ثمرات هذا الشرط أخذه أعمامه المشاكسين بالشدة المهلكة . وصاحبته هذه السجية حتى اللحظة التي كاثرته فيها القوى وناهضته الدنيا بما أفقده الخيار ووجدنا في أول حكمه كيف عزل ابن ادم عن الفتوى وحدد اقامته في احدى القرى وهو عمدة العلماء وذروة الصلحاء واستاذ الخطي وآخرين في مستواه من المرتبة العلمية فهل يتصور انسان لم يُعجله التسرع ان يسكت مثل هذا الامير الباطش عن مفتٍ هو ناصبه واولاه ما يشبه مشيخة الاسلام وصاحبه على الرضا ما يقرب من ربع قرن لينقض بسنّ يراعه إمارة مازجت طموحه ونزلت في شعوره منزل الروح من الجسد وأفنى في أقامتها وادامتها عمره و اعمار الألوف من مقاتلته اذا كان يجد بصيص أمل في تجنب الكارثة ؟ اني لتنازعني نفسي الى الحلف بالأيمان على أن الأمير كان يقطع الخطي قطعا تنزل من خروم الغربال اذا آنس منه نية لأذى إمارته وهو قادر على الحماية . بل اني واثق ويثق معي كل من عرف الأمير وسمع بالأمير وكتب عن الأمير انه ما كان يتردد ربع دقيقة في اماطة جيش الخليفة أولا وتقويض دولته ثانيا وفتح عاصمته واحتلال قصوره وخدوره ومصادرة جواهره و بواهره ثالثاً وخامساً وعاشراً اذا مكنه الامكان من ذلك ولم يكن يبخل في هذا السبيل بشنق مائة خطي اذا اقتضاه المقتضى . وهل كان الخطي اعز منالا من الحسين فلذة كبد النبي ؟ وهل كان الأمير أقل حبا لنفسه من يزيد ؟ أم هل كان يزيد أوضح حجة في الحسين من الأمير في الخطي ؟ صورة وألف صورة مثلها من التأريخ ومن منطق الأشياء تتداعى ناطقة بأن المصالح العظمى في سياسات الدول ، ولا سيما ما كان منها محكوماً بالارادة المتفردة التي لا تطاول ، تمضي الى اهدافها لا يستوقفها غير شيئين : الخوف من ضياع المصلحة و العجز عن تبعات المجابهة . وفي ما عداهما تجد التبرير في اي شيء تقدر عليه بما لديها من سلطة ومن مال .

وخامس الأمور هو ان تقوض امارة الباشا كان يعود بالضرر على الخطى نفسه فلا تظن احدا من علماء الكرد نال من الكرامة الدنيوية والمقام المعنوي ما ناله الخطي خلال البضع والعشرين سنة من شغله صدارة الدين في حكم الأمير السوراني . والمعروف من حال الخطي بعد انقضاء حكم الأمير انه عاد الى قريته وسابق وضعه في تدريس طلاب علوم الأسلام وبهذا يسقط واحد من الدعائم الوهمية الكبيرة التي تعلل فتوى الخطي بغير حرصه على مصائر الناس فان المنتظر ان يكافأ صاحب الفتوى اذا كان مضمرا في قلبه املا دنيويا يخفف عن كاهله . فاذا حذفنا احتمال المكافأة لافتضاح جهة الطمع فيها امكن تعويضه عنها بما يناسب مقامه العلمي من مثل مشيخة الاسلام فهو باستثناء ابن آدم ممن أليق علماء عصره بها . ولو لا ان الفتوى محسوبة لمصلحة الأمير وأهل المنطقة باكثر من حسبانها للخليفة ودولته لكانت الفتوى وحدها وبحد ذاتها اكبر مسوغ لتقريبه من الخليفة في مشيخة الاسلام ولكن الفتوى صدقت في خاتمة الخطي برجوعه الى قريته كما صدقت في يومها الأول بعصمتها للأرض والعرض من العدوان .

ومن الامور التي يستأنس بها في تقويم موقف الخطي ما يمكن استنباطه من استقراء واحدة من صفحات حياة أحد اساطين الحق في ما بعد النصف الاول من عهد الخطي واقصد به رائد القومية الكردية وفلسفتها المستنيرة في القرن التاسع عشر الشاعر العصي على الموت الحاج قادر الكوبي فقد كان عمره يوم صدور الفتوى اثنتي عشر سنة على أقل تقدير وتسنى له أن يدرس في مدرسة الخطي على ارجح الاحتمال بعد اقل من عشرين عاماً من صدورها فهو قد عاش عصر المحنة وتنسم اجواءها وجال في مواطنها ودرس على صاحبها فلما أصبح فيما بعد شاعر القومية الكردية في أرض الغربة بأستنبول ذكر منطقة بالك في شعره بحنين شديد وأثنى على الأمير محمد باشا واخيه بعده بما كان من صرفهما على العلماء فيقول ما معناه :

على مدى دوام الجرايات من الأعور والألكن كان في اغلب القرى علماء صلحاء

ونحن نعلم ان اكبر نصيب مما يدخل في معنى الجراية المقطوعة للعلماء هو الذي كان مخصصا لديوان الخطي ومدرسته . ولقد قلت في الصفحة ٨٠ من كتبي الموسوم «اعادة التوازي الى ميزان مختل» المطبوع سنة ١٩٧٧ في معرض الدفاع عن الخطي ونفض غبار التهمة عن نعليه ما يلي :

«فاذا كان العلامة الخطي قد ارتكب شيئا كهذا ثم كان من نصيب حاجي فيما بعد ان يدرس عنده ويتعرف على شؤونه من قرب اذا لكان حتما مقضيا ان يذكر شيئا من ذلك في شعر النصف الثاني من حياته التي انفتح فيها ذهنه على المعاني القومية وادراك مكان الاعمال الضارة والنافعة فيها فانه ما ابقى نافعا ولا ضارا في الحقل القومي الا ذكره بالمدح أو القدح فجاء خلو ديوانه من اية اشارة يُشتَمُّ منها في الوهم ريح تخوين العلامة الخطي أو النيل منه دليلا يستأنس به في ترجيح مقولة أخرى شائعة بالتواتر تنزهه من تلك الموبقة وترد موقف العلامة الخطي في هذا الى رضا الباشا نفسه . بل ان في ديوانه ما قد يحمل على نزاهة العلامة الخطي وهو ما ذكره حاجي قادر من فضل كور باشا في تعمير المساجد والصرف على العلماء وكان أول من اعذق عليه من علماء عصره بعد خلافه مع العلامة ابن ادم هو العلامة الخطي . وانه لواضح ان وقوع الخطي موقعا يحمد بسببه كور باشا هو في أظهر دلالاته موجب لحمد الخطي نفسه .» .

بقي ان يقال من باب التمسك بتلابيب اي كلام يحصر الخطي في زاوية محرجة انه كان اشرف واكرم لجيش الأمير ان ينازل الجيش العثماني وفاءً بالواجب القومي الذي لا يتقدم عليه شيء ولتكن النتيجة ما تكون ، فأقول :

اما ان النتيجة لم تكن تتعدى احتمالا واحدا هو انكسار جيش الأمير فهي حقيقة مفهومة من قبول الأمير للمهادنة ذلك ان طموحه ونزوعه الى السلطان وتوسله بكل الذرائع لترسيخ الذات واطراد تزيده من القوة المسلحة بما فيها صب المدافع وصنع الأسلحة على قدر الامكان وخلق الفرص للتوسع بل ان كل ما فعل وترك وقال ولم يقل يدل دلالة قاطعة على انه ما كان يضع

السلاح لو وجد في الحرب بصيص أمل في النجاح أو المقاومة فأنه كان من طبع طموحه ان يركب ربع الأمل الى الانتصار بوجه ثلاثة ارباع الخوف من الخذلان ولكنه بسبب هذا الحرص على المصير كان يبخل بنفسه على الهلاك المفروغ منه فاجتنبه متعلقا ببقية أمل ماثل في الوعود المبذولة . ولربما تبادر الى الذهن احتمال آخر فيه خيار الأمل أقوى منه في التسليم للعثمانيين وهو هروبه بجيشه الى القاجاريين . ونحن وان كنا لا نعلم ماذا كان خليقاً باولئك أن يفعلوه ولا نركن في الحكم برفضهم لأيوائه الى ما سبق من رفضهم لصداقته الا اننا نستطيع ان نقرأ اختيار الأمير في احتمالي الرفض والقبول القاجاري : فهو اذا كان متيقناً من رفضهم فقد سقط خياره في الاحتماء بهم . واذا كان متيقناً من قبولهم فقد أثبت بتركه هذا الخيار تجنب صيرورته أداة شغب بيدهم فأنه كان يعلم تعذر التذبذب المتناوب بين ولاءين : مرة لآل قاجار ومرة لآل عثمان كما كان في امكان امراء بابان أن يفعلوا ازمانا طوالا ولو كان قادراً على التذبذب لاختاره على التسليم ففيه مجال التعلل ولكنه كان يدرك ان عهد الاستغاية في سياسات الشرق الاوسط قد انقضى أوانه بانكماش فرص التقلب امام القوى الصغيرة نتيجة ضغط المصالح المتنامية للغرب الناهض بقوة الى فتح الأسواق لمنتجاته وضمان تدفقها وسلامة تجارتها عبر توازن القوى واستقرار الأحوال وما الى نهاية هذه التداعيات المفضية كلها الى سقوط حيلة الضعيف في المعترك الحديث . وما كان قيام العثمانيين بتصفية الامارات الكردية الاّ صورة ماثلة من السياسة الدولية واضحة القسمات في بصيرة الامير . فأحسن صنعاً بالمهادنة وترك الانتحار وان كان قد ضاع على اجيال ما بعد الربع الأول من القرن العشرين تفاخر الاعتزاز بخراب كذا الف بيت واستشهاد كذا من عشراتٍ الألوف واحتراق الأخضر واليابس وهلاك الزرع والضرع في مساحة واسعة من أرض الكرد المصبوغة بالدم فما اروعها صورة دهماء من امتزاج الاحمر المسفوك بالأخضر المحروق فانا نعلم ان الابطال من شهداء ملحمة (دمدم) كانوا من قرنين وبعض القرن قد تركوا بعد موتهم وخراب

ديارهم وفرار من أفلت منهم ، تركوا سائحة السوانح لفخر المفتونين بمجالس العزاء والنواح على القبور واللطم في الأطلال وقد جاء في المأثورات ان اول مسجد للصلاة في المنطقة كلها أقيم بعد ثمانين سنة من وقوع الكارثة الماحقة ، ولو أقيم بعد ثمانمائة سنة لتضاعف فخر المفتخر بعشرة امثاله .

اقول هذا وانا اشد المكبرين لروح البطولة في مأثرة (دمدم) فانه بعدما حُمَّ القضاء وحل الفناء وتمّ الخراب يكون من باب التطوع لاستكمال الافلاس بشقيه المادي والمعنوي أن نترك الفخر ببطولة عزت بين الأمم ، ولكني واع أشدَّ الوعي ايضا مقدار الخسارة القومية في كارثة دمدم وفي غيرها من الكوارث التي لم يكن متصوراً لها غير نهاية واحدة محتومة فلن اتخذ انبهاري بروح الفداء في دمدم سُلَّماً الى كوارث مماثلة لا غلة فيها غير الانبهار فالناس أعز على أحياءً منهم امواتا ، والاوطان أوقعُ في قلبي خضراء منها سوداء حمراء . ثم ان غلة الكرد من الجماجم الكردية وانقاض القرى الكردية خلال معارك بضع السنين السابقة على محنة الفتوى في ١٢٥٢ كانت من الضخامة والفخامة بما لا يترك فضلة شهية عند المفتون بالدم والنار حتى تقدم لها راوندوز طبق الحلوى في ختام وليمة الثكل واليتم والضياع . فالمسألة لا خيار فيها يختاره العقل السوي غير واحد هو الذي اختاره الامير مؤطرا بالفتوى . وكان الأمير في موقفه المحاط بمبطلات الأرادة اقل حيلة من لنين في قبوله بمعاهدة بريست ليتوفسك التي جرت عليه كثيراً من التقولات ولكن لينين آثر مستقبلاً مضمونا مدفوع الثمن بمعاهدة أملتها الضرورة على مغامرة تكون حصيلة الأنتصار فيها مقاربة لحصيلة الاذعان الى المعاهدة بما فيها من يقين الحياة وتكون حصيلة خسرانها ضياع كل الآمال التي ثار من أجلها وأثار بها أمة عن بكرة ابيها .

هذا الهم الصغير الذي يشغلني في ظلم الناس للعلامة الخطي ينفرق عندي فرعين أصغرهما أكبر من الأصل بمراتب واكبرهما تنوء به العصبة اولو القوة .

أما الأصغر فهو استمراء الثقافة الكردية الحديثة لفرص التحامل على امثال الخطي دونما نظر الى عواقب هذا الميل المتحيز الذي يلتبس فيه الحق بالباطل . ذلك أن التحيز في المثقف نوع غشاوة تنسدل على عين المجتمع لان الثقافة نور الرؤية ونبراس الهداية ثم هو تبلد يخالط احساسه بالخطأ و الصواب والاستقامة والألتواء والظلم والعدالة وبقية القيم فالمثقف في مثل دنيا الكرد هو الذي يتكلم باسم الناس وينوب عنهم في تسمية الأشياء وتضمينها المعاني ويرفض هذا العرض ويقبل بذلك ويسحب وراءه الدنيا الى المهالك وأنصاف المهلكة وما اكثر ما وجدت البسطاء من عباد الله حيارى فيما يفعله المثقفون بأنفسهم من التفرق والتشرذم وما يتبعه من العنف الوبيل على أمور يتفاهم في مثلها البسطاء عفو الخاطر لأنهم لا يملكون قواعد آيديولوجية في تقويم المصالح الدنيوية كي يقيسها عمرو على جذبة القادرية ويعرضها بكر على خلوة النقشبندية . ولا أظن ان السياسة اخرجت الى ميدانها قضية في مثل وضوح واجب طلائع الكرد فقد كاد ان ينحصر هذا الواجب منذ انتهاء الحرب الكونية الأولى من ثمانية وستين عاما في حفظ الوجود القومي عبر معركة الحياة ضد الفناء فالايديولوجيات ينبغي أن تخرس بين اهل سفينة مهددة بالغرق . ومن اعجب العجب الذي يفلته احساس المثقف الكردي انه يلوم أمراء الكرد وذوى القدرة منهم في ماضي الزمان على تفرقهم وتركهم الوفاق بوجه اخطار كانت تهدد وجودهم من خارج كردستان ولكنه ينسى نفسه وهو غارق اكثر من امراء الكرد في التفرق والتصدع والتناحر والتذابح على غير داع من مصالح الدنيا ومصائر الناس فأذا كان عذر الأمير الكردي في عدم الوفاق هو خوفه من احتكار جاره القوي لثمرات الوفاق وما قد يؤدي اليه من تهديد مصالحه بما فيها امارته من اساسها فليس للمثقف الكردي من عذر الا ما كان من التحيز لآيديولوجية منقلبة الى دين يراه أقدس وأغلى واحرى بالافتداء من كل المصالح الوطنية والقومية التي يزعم ان الآيديولوجية نبعت منها ابتداء . فالمثقف أخلى يدا من الامير الكردي القديم في عذر التفرق مرارا

عديدة : فهو مؤاخذ بالثقافة التي كان الأمير يفتقدها . ويعيش في عصر ملئ باسباب الوعي حتى سقط العذر من يد اي انسان يتعامى عن الحقائق . وينيب نفسه مناب شعب بأسره ثم ينقلب على نفسه بشر المهالك في مصالح الناس . وتتهدد الأخطار وجوده في يومه بأكثر مما هددت ماضيه قبل مئات السنين . والمثقف بعد هذا كله لم يستطع ان يقدم لشعبه ربع امارة شوهاء مما كان الأمراء المشوهون يداعبون بها احلام أنصاف النيام من بني جنسهم .

بقي ان يطالبني المثقف الطليعي بأمارة مما كان لسوران أو بابان حتى يَهبَ الناسَ من فوق منبرها بركات الخلاص فأقول له . انه اذا كان في مستوى الافلاس وعلى الطوى يركب شبح الايديولوجيا في مصاولة أمثاله من راكبي دواليب هواء العقيدة فما أحراه في مستوى الشبع والوفرة والرضا عن الذات أن يصفو مزاجه للنحر والتناحر حتى شفا الأضمحلال وما ذلك بحاجة مني الى برهان فانه لا أمل في الطليعي قبل ان يتغلب على ضيق النظر من التحيز وتعويد نفسه على توسيع نطاق الرؤية حتى يتبين المآتي الحقيقية للمصلحة القومية كما هي في واقع الحياة الا في تلافيف النظريات ولا أطيل الكلام في ذلك فأن طويله وقصيره يستويان في أمر واضح للعيان كالمحنة التي يعيشها الكردي وهي الهم الأكبر الذي أشرت إليه فأقول فيها ان المشكلات المتميزة التي يرزح تحتها الكردي ويتيه فيها لبه ويخيب حسابه ويضيع كتابه ويختل نصابه تعود بجذرها الى الثلث الأخير من القرن السادس قبل الميلاد يوم مال ميزان اقداره بخسارة دولته في ماد وانتقال السلطة منه الى الأخمينيين في حكم كورش الكبير فهو منذئذ منشغل على غير طائل بجمع ما ينتثر وبناء ما ينهدم وجبر ما ينكسر وحبك ما ينتقض وسد ما ينخرق فاذا غارت جروحه كان أشق بلاسمه ان يتركها تجف من ذات نفسها حيث لا يوجد مداوٍ أو دواء . فقد صدق فيه قولي المنشور صيف عام ١٩٦٠ : إنه يخرج اليوم من جدث التأريخ أشعث أغبر ينزف جسمه من جرح عشرين قرنا او يزيد وتغوص في عظامه سلاسل الأحقاب ، لو اطلعت عليه لوليت منه فراراً و

للث منه رعبا .

وكان هذا الكلام ضمن ما سُمّي بوقته «حملة توطيد الاخاء العربي الكردي» فجاء بعده ما يلي : وتعاورته الأيام بخساً ونقصا حتى تكشفت مطاعنه لكل رام وضارب فاختلج يسحب على جسمه المثخن طرفاً من درع تموز وفي عينه نظرة التساؤل يطالع بها وجه أخيه : اي أخي مُدَّ لي من الدرع على قدر إرثي أو أعرني أو هب لي أتق به السهام انهم يوجعون . وتفيض به شؤونه وشجونه لا يدري هل طفحت كأسه من دم يسال أم كرامة تذل هنا وهناك حيث يحثم على كل دار للكرد ذو قساوة وضراوة : اي أخي من زادنا وعتادنا أو من زادك وعتادك شيئا يسمح به الاخاء فأولئك قوم في نكالي مغرقون . أنهم يقتلون ويحرقون ويفسقون ! وانظر ماذا ترى في الأمر أيها الاخ دفعاً للبلاء وقطعاً للشكاة اني مغلوب فانتصر . وما هو مكلف اخاه شططاً من أمره بصرخة الأستنجاد . واذا كان في إغاثة (الأخ) الملهوف شطط أو غلط فبئست المقاييس التي تقاس بها الأخلاق والقيم وتعسا لعيش يقام من فضل السوم ونقص الوزن واستيفاء الاكتيال .

اقول هذا من باب الانسياق مع منطق التفرق والدعوة الى التناحر بذرائع من الفروق لا تنهض الى جانب دواعي الوفاق لرد خطر الموت كما تنهض الحصاة الى جانب قلعة اربيل . أما عن خلود شعبنا فأن الكلام فيه ترديد لبديهية فوق مراتب المناقشة وقد كررت في ذلك قولي ومنه ما نشرته ضمن احدى مقالاتي في صيف سنة ١٩٦٠ اذ كتبت : والكرد جاز العصور التي كانت تسيغ اضمحلال الشعوب وترقين قيدها من سجل الوجود وهو اليوم حقيقة مستعصية على الفناء وتدرج على مهل في مرقاة مطردة التصعيد نحو ذرى تشهده منها الدنيا كما تشهد بزوغ النجم المحتوم في حكم طبيعة الأشياء .

ولكن التفرق سيظل سبيل الشعوب المشعثة الى الموت . وشر انواع التشعث ما كان قائماً على قدسية الآيديولوجيات ، ولقد قلت في مناسبة منذ اكثر من ثلث قرن انه خير للانسان أن يعيش

بلا تفسير من أن يموت موتا مفسراً .

لقد كفاني مقتا للتفرق المهلك في القضايا المصيرية ان نكون لما نَزلْ مختلفين في بديهية من مثل شكل الألفباء الكردي وكيفية كتابة الجملة الكردية واسماء ايام الأسبوع وان ندبَّ في بدايات تأسيس الكتابة الأدبية متعثرين : وكلها تفاريقُ المحنة القومية القديمة موزّعةً على جوانب حياتنا المختلفة المصابة بشلل الأطفال أفهل عليّ ان ألتقط من بين الحطام المركوم من خمسة وعشرين قرنا مصباحاً هشمت الفجاجة منه الزجاجة وفتأت الذبالة إلا أنه في مشكاة من الفضل والحشمة فاذا جُلِّيَ من صَدئِه «يكادُ زيته يُضيءُ ولو لم تمسسهُ نار» فان ذكراه لما تزل تشع في الشجرة المباركة على مشارف (خەتێ) فهو نعم الصدر ونعم الجهبذ ونعم الفتى .

قرئ في مهرجان الشعر باريس يوم ١٠ / ٩ / ١٩٨٦

من هموم الحياة

بدأ الهم يومَ انبعثت طاقة الحياة في المادة الميتة أول مرة على صورة يحار فيها الفهم فنشأ في الحي هم الديمومة بالغذاء وبرد الموت وبالتناسل حتى اذا ارتقت المادة الحية في مدارج الصعود شيئا توسع نطاق همها على الجوانب ومن الأعماق بزيادة الوجوه التي وجب عليها ان تمدها بطاقة الحياة وبتكاثر المكامن التي تنذرها بخطر الفناء وباضطرارها الى التزيد من وسائل الحماية والأصطياد . ثم تطورت وتنوعت اصولا وفروعا فتنامت احاسيسها البدائية الى طور الغريزة الجامعة بين التلقائية وبين الارادة فيما تقبل وترفض وكانت الغريزة نفسها متوزعة على انواع لانكاد تُحصى من الكائن الحي المتطور نحو اتساع الأستشعار في البيئة وتنوع الاحتيال لتذليل المصاعب في احقاب من الدهر طوت مئات الملايين من السنين وشهدت انقراض الوف الأصناف التي عاكستها الظروف أو قصرت بها وسائل الحماية او عجزت عن التأقلم او خابت سبلها في كسب القوت . ثم طرأ البشر بما هو معروف من خصائصه التي تميزه عن الوجود كله ، حيه وميته . وسواء عُزى ظهوره الى طفرة واسعة في مسار تطوره البايولوجي البطئ فانماز بها عما سبقه من الحي الذي نَسَلَهُ أو عُزِيَ ذلك الى تركيب قابلية فيه لم تكن موجودة في اجياله المنقضية فالنتيجة واحدة من حيث ان البشر انفتحت مداركه الجديدة لسبل التصرف والتخيل والنزوع تنوعت الى الكثرة وتفاوتت في الوعي على مر الزمن عبر حزون التجربة والخطأ فأنتجت كل ماهو مضمون الاجتماع والتأريخ . ولربما كان أول شيٍ بزغ من نور العقل هو الكلام ، ذلك ان الأصوات المبهمة الخارجة من لهاة البهائم كانت وسيلة التعبير عن المدركات الغريزية التي لا إفصاح فيها وقد بقي منها عند البشر مقدار ملحوظ فتراه يُخرج عند الغضب والرضا والشك واليقين والخوف والأمان اصواتاً دالة على تلك المشاعر قريبة الشبه بمواء القط وحمحمة الفرس في أحوالها المختلفة . فلما انقلب الادراك الغريزي الى الفهم الواعي صارت الاصوات قاصرة عن التعبير فيما هو مدرك عقلي فانبثق (النطق) ترجمانا للعقل على وجه الضرورة الملجئة . ومن هذه

الزاوية جاء تصوري ان النطق اول منجزات العقل فلا مانع من ان يكون البشر قد جرى في بقية شوؤنه على انماطها القديمة مدة من الزمان حتى صار يلبس اللبوس ويمشي مستويا في طور لاحق . فاذا عجز النطق بتراكيبه ومفرداته ان يجاري العقل في تصوراته الطليقة من القيود والحدود أسعفه ذكاء النبغاء بابتداع الرمز والعلامة والاشارة ادوات لردم الفجوة بينهما على قدر الأمكان . وإنها لمفارقة أن يتصل اول الكتابة قبل نيف وخمسين قرنا بآخر انواع التفهيم الحديث في استعانة كليهما بالصورة والرمز عوضا عن حروف الهجاء فقد تساوت سهولة البداية وصعوبة النهاية من حيث الوسيلة في احوال كثيرة .

هموم عصر الكهف المتمثلة في الأحتماء والاقتيات وشيٌ من الحزن وتدبير النار اتسعت في طور الرعي ثم في الزراعة عمقاً ومدى كأن تكون هموم الأحتماء جاوزت الذات الى ذوات المقتنيات والى الحومة التي عليها ان تتسع باتساع مرافق العيش . وتغلغل الفكر الى عمق يسرته التجربة والتصور والأرث وتشابكت الاشباح الموهومة لظواهر الاشياء اوشية من الأساطير تهيأ لبعضها أن يعيش طويلا فما لمع برق أو هبّ اعصار وزلزل زلزال أو توارت النجوم والشمس والقمر ثم ظهرت فبهرت الآ وافرخت في روع الأحيال القديمة المنقضية قوى مستورة تبطش وتدمر وقد تبسم وتعمر .

والقول في اتساع الفهم واتساع الضلال واتساع الآمال واتساع المخاوف واتساع التشابكات من عصر الى عصر حتى يوم نعيشه بآخر صرعة للذعر من الرأس النووي ، هو استرسال فيما لوكان البحر مداداً لنفد البحر في كلماته فأننا اذا مسحنا سجل كل المخاوف والمباهج والمكاره والمطامح التي انطوت بانطواء ايامها الماضية وانشغلنا بتعداد الموجود منها في مدينة واحدة على أيامنا لحار الفهم في حصره واعجز تعداده الأمكان . ويستفحل العجز في استكناه بعض معدود منه فأدراك الكنه ليس كالأحساس بالمنظور وشتان مابينهما شتات مابين الجوهر

والعرض فانه لو اجتمع أهل الأرض لاستكناه المضمون النفسي الذي سوّل للعربي والاوربي تقديم أداة التعريف على الاسم وسوّل للكردي تأخيرها عنه لما بلغوا فيه إلا تداعيات افتراضية تضرب يميناً وشمالاً وفي كل اتجاه ثم لاتغني عن الحق شيئاً فعلم ذلك موكول الى مستقبل بعيد في اعقاب فتوح علمية قد تستغرق زمانا لا يحاط به وربما امتنع فهمه على العقول والعلوم حتى أبد الآبدين ..

هموم العصر كمضمون العصر في ثرائه وازدحامه وتعقيده . وفي استعراضها يختفي حساب المسرات وسوانح السعد فذلك (هم !) من نوع فريد ينشعب بدوره على اشكال لاسهولة في تتبعها وكثير منها يدخل من باب مصائب قوم عند قوم فوائد كما ان فوائد قوم عند قوم فوائد أو مصائب ..

هموم العصر تتوزع في دنيانا على مساحات يتفاوت حظها منها بتفاوت نصيبها من التخلف وفجاجة الرأي وضحالة التجربة فلست أجد نسبة إطّردَت بين طرفي اية معادلة اجتماعية كاطراد الهم باطراد التخلف فانه بمثل ماينقلب المال في يد المأفون الى فضل قدرة على تدمير الذات تنقلب معظم مصادر السعادة في الشعوب المتخلفة الى مساقط لدق الاعناق وتهشم الأضلاع فما علمنا حتى يومنا النعمة من النقمة في سيل النفط على دنيا الفقراء فلقد كان خير وجوه الانتفاع منه هو بيع الاغنياء من غير دنيانا أسلحة الفتك وسلع الامتاع أو الاشباع . ومما يزيد حجم الهم الرابض على صدر العالم الثالث والرابع ومابعدهما ان هموما أشد منه تلاشت وتوارت من العوالم الأخرى فالنظر المبصر المحايد يدرك بوضوح ان كثيراً جداً من اسباب الخراب في عالمنا ليس حرياً ان يثير اي اشكال بين البشر المحتفظين بحد مقبول من سلامة الرؤية ونظافة الطوية فالهم الأكبر الذي يلد الهموم الأخرى صغراها وكبراها ووسطاها هو هذا النزغ المغرى بالعدوان الذي يرتفع شعاراً على أهداف تقدست وازّينت بالبهارج حتى صارت في جمال قوس القزح تفتك بالنفوس وتأتي على

الزرع والضرع مابين التهليل والتهريج والترمير فيا لبركات النازغة البازغة !

فاذا بدا للعين المبصرة التي لم تلتبس عليها الرؤية من وراء نظارات تلونت بالآيديولوجيات والتخريجات ان الويل المطبق على دنيانا الثالثة كالغيمة المدلهمة ليس بالقضاء المحتوم الذي لايرد ولا هو بالاحتمال الأرجح المنتظر وقوعه ولا هو بالشر الذي يتساوى احتمال حدوثه وعدمه بل انه في منطق العقل السوى غير المتبلد بالنزغ والشهوة هو الأحتمال الأضعف والأبعد المستبعد ... واذا بدا للعين المبصرة ان جفاف السواقي وبوار الأرضين وانقلاع المثمرات وخواء البيوت يكفي فيه الأهمال بلا داع الى تكلف البراعة في الصياغات الفلسفية وشحذ الهمة في تشكيل المنظمات وتحزيب الأحزاب وافتعال الصراعات على ماهو دأبنا في عالمنا البائس منذ عشرات السنين .. فاذا بدا هذا وذاك وذياك من مصائب العالم الثالث او العاشر أو العشرين ينزل بسخاء متزايد على رؤوس مليارات العجزة من افراد شعوبه فقد انكشف للعين شيءٌ بشع وبيل شنيع يكون مجرد انكشافه مستدعيا للشعور بفضل شقاء لا خلاص من نكاله فالتيقن من ان القسط الأعظم للمصائب الطاحنة والارزاء الفادحة كان حريا الا يقع أصلا وان بدائله من السلامة والامان احتجبت وامتنعت برغبة من أنفس طغت وبغت وتعفرنت على سواد المساكين الذين تنازلوا عن آدميتهم من دهور . هذا التيقن يضع البلاء في حجمه الحقيقي المذهل الذي لا عزاء فيه اطلاقا ليس لأنه بلاء نزل بلا ضرورة فقط بل لأنه بسبب كونه نزل عبثا يستطيع ان يدوم عبثا وبلا ضرورة ماشاء ان يدوم ثم إنه لعبثيته من شأنه ان يتعاظم شره شهرا بعد شهر وقد يتعاظم في بيروت يوما بعد يوم ويتفاقم بين ناس آخرين نهاراً بعد ليل وبين أشتات من مهاويس النضال ساعة بعد أخرى ، وعلى قدر الشر المستطير من تذابحهم ينتشر رذاذ الموت والخراب والنكال على الأطراف فوق رؤوس النيام والأيقاظ من عامة الناس فها هنا مكمن للهم كالمنجم البكر يزيدك هما اذا زدته نبشاً ويحملك على زيادة الاستبشاع بمقدار انعدام الدواعي المقنعة لوجوده ثم

يدفعك على التحسر المر انسداد الباب بالتمام والكمال بوجه كلمة الحق شجباً لأظهر المواقف بطلانا وأشد الاحداث عدوانا : المتأمل فيما ادهم من آفاق عالمنا الثالث العاشر يكاد يلمس بأنامله كثافة البلوى ويحس تسرب الفجيعة الى نخاعه كدبيب العقرب تحت ابطية فاني أرى شعوبه في مقام شخص علقت النار بذيل ثوبه ويراها تنتشر في سائر ثوبه ولايستطيع تحريك إصبع واحد لردها وصدها وإخمادها .. والناس في حمل الهم ومعاناته على حظوظ متفاوتة ولقد قال الشاعر نالى في الكردية ما معناه : ان من الناس طرازا يكون الهم قوته وانا أقتات همي وهم العالمين معا – رحمه الله . والأفكوهة الشعبية نقلت الينا ان مخلوقا مازج الهم طبعه فما خلا شيٌ في نظره من هم في طياته فسماه الناس لذلك (العم هم – او المهموم) . واستيقظ في صباح نادر المثال ففكر في الاحتمالات التي تزوده بهمه المعتاد فما عثر على ضالته واوشك أن يتحسر على عدم وجود شيٌ يحمل همه فدخلت امراته عليه قائلة ان اتان جارهم ولدت جحشا بلا ذيل وبلا اذنين فضرب العم هم كفا بكف وقال : لاحولا ولا .. كيف العمل اذا طمس في الطين اللزج يوم يصل عمر الحمل والنقل وليس له اذنان أو ذيل يمسك به صاحبه لأخراجه ! والواقع ان صاحب هذه السطور لم يجند نفسه للنبش على الهموم ولاكانت السوداوية من طباعه ولربما صح القول بانه واحد من القلة التي تشربت روحها فلسفة حب الوجود وتغلغل الأيمان في ضميرها بحتمية ارتقاء الانسان فوق حقاراته الراهنة ورسخ يقينها بحلول يوم يهزأ فيه اخف ناسه وعيا من هرآآت تتعثر بخطى عباقرة يومنا هذا فما كنت مرهف الحس باوجاع رعناء مأفونة دخيلة الا لفرط غرامي بالأشراق الممكن المحتمل المنتظر الذي يحيله فجاجة الرأي وهشاشة الوعي ورخاوة العزم وبلاهة النظر وضلالة القصد عامة وعند الطلائع والقادة والأدلاء خاصة الى خيال وخبال وخسارة ودمار وموت زؤام . فاذا حصل اليأس أو وهي الأمل في رشد اولئك الممسكين بمقاليد الأمور فقد كان الأمل ضاع من رفض العامة لا فانين البلاء التي تحوكها غالبية القادة

والطلائع بذكاء أو غباء فتكون دائرة المحنة اتصلت من نهايتي قوسها على الواقع المطرد في الاكفهرار والاطلخام الى حد القرف والأشمئزاز .

اني إذ أجد الألم يعتصرني في رؤية زهرة تذبل على نبات جف ماؤه ، يكاثرني من جهة اخرى هم زهور اخرى كثيرة كانت ستتفتح بالجمال والرواء وانفاس العطر فما كنت بالمتبلد الذي يأسى على فوات الربح ثم ينسى فوات رأس المال . ان جفاف اي منبع ماء هو بالبداهة حرمان طائفة من الاحياء من شرابه وحرمان طائفة من البشر مما كان خليقا ان يسقى من مزروعاته ، وكل حي يموت في شبابه هو انقطاع سلالة من الاحياء كانوا سيعيشون ويتوالدون فالعدم الذي يطرأ على الموجود هو ايذان بعدمه وعدم عقباه بل ان عبوساً من وجه آدمي هو بالبداهة عرض لموقف سلبي عقيم ثم هو بشيٌ من الحساب قتل لمشروع بسمة ووأد لاستهلال تحية وسد باب كان محتملاً ان ينفتح للألفة والصداقة ثم ان كلا من العبوس والبشاشة تلمس عصب المتلقي وتوحي اليه بصورة منها تعيش في خلده أمدا ، ومَثَلُ كلمة طيبة كشجرة طيبة اصلها ثابت والكلمة الخبيثة شجرة خبيثة فياليت انها اجتُثّت من فوق الأرض .

كثيرة هي الهموم وانواع الهموم ودرجات الهموم لعن الله كثيرها وقليلها وكل انواعها ودرجاتها وياللحظ المقلوب في تصدي الوعاظ وذوي الرأي وأصحاب الفكر والفلسفة لتصوير الهم وبواعثه ومكامنه على أنها من طبائع الأشياء وضربة لازب لا مهرب منها وانها « ...كالليل الذي هو مدركي» فما الذي منعهم ان يصوروا البهجة والسعادة وأطايب الأشياء على انها هي من طبائع الأشياء ومطاليب النفوس فلم لا تكون هي ضربة لازب وحكم المحتوم ورشح البديهة ! ماالذي يحمل ارادة العقلاء وقريحة الجهابذة وفطنة الاذكياء من القائلين والعاملين والكاتبين والمشكّلين على ان يرفعوا نيابة عن كل البشر علم التسليم للمنتظر الأسوأ والمقدر الأفدح والمحتم الأشد الألد ! مابالهم في تظاهرهم بالحرص على قولة الحق يسمعوننا أنكى مانكره وأقتله لرجاء

الخير واقواه في دفعنا الى الاستسلام ؟ هلا تبرعوا بشيء من الكذب الحلو والتلفيق الشهي في مزج الاحتمالات المنتظرة بمسحة من الخضرة والرواء ؟

أليس في المراقي سلم واحد خارج مضمون التناقض ووحدة الأضداد ؟ إني ليبشعني ان يكون وجودي من عدمك وان تنمو من هلاكك سلامتي وينبع من افلاسك موردي . اكره الوجود جملة وتفصيلا اذا ثبت بناؤه بالبرهان القاطع على مبدأ التنافي والتضاد والمهالكة وبشست حياة تولد من الموت وتحبل بالخراب . ان كراهيتي للموت والعدم والانقضاء والتلاشي تدفعني الى التمسك بالحياة ودحر ما ينقضها والاحتيال لما يديمها حتى اني صرت انتحل عقيدة تعاكس مفاهيم التناقض والمفاسخة فاذا تأكد بما لاشك فيه ان بقائي موقوف على هلاك شخص آخر أصبح عندي في لزوم الحياة نفسها ان اتحايل على حكم الحتمية هذه حتى أجد صيغة معادلة تختزل عامل الحتمية وتمهد للمعايشة والمصاحبة فوجدت الصيغة في ان اتنازل عن شيء من أسباب تعلق دوامي بهلاك فلان ويتنازل فلان عن شيء مما يربط دوامه بهلاكي فتكون ثلاثة ارباع كل منا اجدى عليه وعليّ وعلى الناس كافة من دوام اربعة ارباع واحد منا ولانعدم وسيلة للتعايش تساعد كلاً منا على استعادة الربع الذي تنازل عنه في المصالحة فنصبح في الختام ثمانية ارباع كاملة . واذا كان التوصل الى هذه المعادلات المريحة لايتم في الواقع بالسهولة الملحوظة على وجه الورق فأن شرف الهدف منها والنتيجة الحاصلة فيها تستحق عناء التبشير بها والدعوة إليها والتحذير من اهمالها واسقاطها من كل حساب ، ثم ان الاستسلام لحكم التناقض الفاسخ لأحد طرفي كل معادلة هو في الاساس تكلف حمل ثقيل حاطم ، أيسرُ تبعاته تتجاوز أقصى حدود الخسران في الركون الى شعار جميل مشوب بالخيال . ورب قائل يقول ان التبشير بمثل هذه المعادلات الحبية الأخوية المؤدية الى نعاس مغناطيسي بين اطراف تفاوتت قوة وضعفا هو في المآل دوام الحال التي أغنت الغني وأفقرت الفقير فأقول مستعينا ببقية صبر تهرأ في اعقاب مئتي سنة من

شحذ المفاسخة ورفض المصالحة ان تصوير هذا التبشير بمثل هذا التشويه هو في ذاته هم كبير طال به العناء ووسع الباب الى دنيا الخراب والبوار فالدعوة التي ارفعها الى العقول ليست ذات سلك واحد يوصل صوت التحذير في المصالحة الى آذان الضعفاء فقط ذلك ان دعوتي في نهاية القرن العشرين نذير بالشر وتحذير من الهلاك موجه الى الاقوياء الأقل عددا والأكثر عرضة للهزيمة في حفز العداء وشحذ السخيمة ، ثم انها لاترجئ المكافأة الى الحياة الأخرى بل لاترجئها يوما واحدا عن اقرب مواعيدها وهي بعد هذا وذاك نداء الى عقول القادة من طلائع الكفاح والمناضلة الذين يسحبون وراءهم مليارات المتابعين لهم من عامة البسطاء الى أوعر سبل الحلول الجذرية والشعارات الحدية التي يظهر بطلانها وافلاسها من اول نظر يقيسها الى حلول اخرى غير جذرية وغير حدية أراحت أمما في قمة الحضارة ونعومة البال . والدعوة على اي حال ، منساقة مع طبائع التطور التلقائي الذي اوصل البشرية عبر موازنات المعايشة والتعاون والأخذ والعطاء والتفاهم على المصلحة من حياة الكهوف الى المشي فوق أديم القمر فاذا تيسر لها ، اي للدعوة ، ان تستعين بالمفاهيم الحضارية الراقية للسلوك وبالوسائل العلمية القاهرة للموانع كانت جديرة أن تشق للأمل المرجو مافي سياقه من ترعة رائقة الماء وشرعة مكتنفة بالخمائل وأن تبني محطات راحة لمواكب العرس .

والكلام هنا لايعني إنكار صورة الظلم والقبح والنكاية في ماضي البشر فأنها كانت ، ويا للأسى ، جزءً مكملا وخطيراً من مكونات الأجتماع وهي حتى يومنا هذا في اطراد وازدياد على اغلب رقاع ارضنا الحبيبة الكئيبة ولكن المقصود هو ثلاث حقائق خطيرة يتم نسيانها واسقاطها من الاعتبار وكأنها غير موجودة أصلاً : فالحقيقة الاولى هي ان هذا الجانب الأجتماعي المظلم المدمر الحاطم المحرق من العداوات والمفاسخات والتناقضات كانت منذ الأزل مانعاً للخير معيقاً للتطور هادماً للبناء قاتلاً للحياة فمن حقنا على أنفسنا ومن واجب الانصاف في ذممنا ان ندينه

ونلعنه ونجتث جذوره ونطارده في وعينا وعملنا والتزاماتنا الفكرية والأدبية . وليس هذا الأمر من هوامش الحياة التي يسهل التغلب عليها أو الانتهاء منها ولاهي من البساطة بحيث يتسنى شرحها في سطور وقد بُنيت فلسفات كبرى على اعتبار التناقض محركاً للدنيا وباعثا على تطور البشر ومفسراً لحتمية زوال الطبقات في تفصيل يعرفه غالب القراء ولايحويه المقام في هذا المجال . وجرى التوسع في معنى التناقض حتى شمل اموراً لايكون التناقض بينها الا كما يكون بين الرئة والكبد في اقتسام مواد الدم وهما في واقع الحال متعاونتان على ادامة الحياة فاذا ماتت احداهما لم تنتقل حصتها من اغذية الدم الى الأخرى بل ماتت ومات الجسم معها في دقائق .. فاذا تسامحنا دفعا للاطالة وسمينا كل الاختلافات تناقضات وجب القول بانها كلها معيقات مبيدات ولسن معينات على التقدم فليس من المعقول اعتبار الحروب والمكائد واكتساح الاموال والانفس حوافز للتقدم وبواعث على التطور ، ويكون القول بعد ذلك بأن الأخوة بين الناس هي نتيجة هذه التناحرات والتناقضات أشد الأباطيل بطلانا .

والحقيقة الثانية هي ان التطور حصل بالتعاون فحيثما اختفى الأختلاف وهدأت الأحوال وساد التفاهم كانت البيادر أغنى وكانت المحاصيل في كل الحقول من زراعية وتجارية وعلمية وفنية ومزاجية أزهى وأشهى واقرب الى شفاه الفقير . ان الخلاف على المصلحة وعلى مايجاوزها الى الطمع قد يدفع أطراف الخلاف الى زيادة النشاط ولكن الجدوى الحقيقية هي ان يتم التفاهم عليها بلا عراك ، مَثَلُها مثل الجرثومة إذ تدخل الجسم الحي تدفع دفاعاته على النشاط ولكن الجسم كان غنيا عن هذا النشاط المصروف في رد الهجوم وأجدى عليه أن يصرفه في التغذية والتنمية بلا جرثومة . ثم ان التفاوت في الحظوظ من مال وجمال وذكاء وشخصية وصحة جسمية كان ومايزال أمراً متحققا من أقصى اليمين الى اقصى اليسار فلا وجه لدفع الناس الى المهارشة في أي أمر اختلفت فيه حظوظهم بنسب مألوفة متوقعة . ومهما قيل رياءً ان الناس في

الانظمة الفلانية متساوون فليس يجوز عقلا ومنطقا ان يتساوى رئيس الدولة مع حارس الغابات ولا يمكن ان يزدهر علم او فن اذا تساوى عالم الذرة ومصمم المركبة الفضائية مع الحاصود والحارث والحطاب : ان مطرب الاوبرا وراقص الباليه يفقدان جمال الصوت ومرونة الحركة اذا انقلبا نزاحين يوماً واحداً كل شهرين او ثلاثة .

فلكي يحل التساوي يجب ان يتوحد عمل الجميع فيكونوا كلهم رؤساء دولة او أبطالاً في الركض أو فلاحين أو حطابين . والحقيقة هي ان هذا الكلام لا لزوم له لولا غرابة مايقال حول المساواة والتفاوت فالواقع الصلد البعيد من الاوشية الفلسفية يقول ان بلدا مثل الدانمارك بلغ مرتبة عليا من التطور الحضاري وراء كل مايحلم به اصحاب النظريات الحدية الجذرية التناقضية بلا طبل ولا زمر ولا تهريج او إسالة دماء أو تحريق أو تمزيق فاستقامت فيها موازين المعيشة والتصرف فكانت نتيجتها من مرفق كالفنادق ان أصحابها يكادون يدفعون الرشوة لنزلائهم بما يقدمون اليهم من الخدمة الممتازة وصنوف الراحة والتسلية على حين يكون مدير الفندق في البلد الثوري الذي عالج مشاكله في ضوء نظرية التناقض متبرماً بالنزلاء سيّ التصرف معهم الا اذا دفعوا له البخشيش المجزى لقاء الراحة والخدمة والعناية . هذا منطق المصلحة بعيداً من النظريات والفلسفات حتى اليوم الذي ترتقي فيه ضمائر الناس بالتربية وبعدم الحاجة الى الألتواء وبعدم القدرة عليه فيستوى صاحب الفندق مع مديره المأجور في تعاملها مع الضيوف وذلك ليس باليوم القريب من عالمنا الثالث ويزداد بعدا بازدياد الأصرار على التمسك بتلابيب التناقضات مفتاحاً لجنة الله في أرضه وبتقديم الحلول الجذرية على الحلول الفرعية في مشاكل الحياة وهذا في ذاته هم أناخ بكلكله على الصدور من عشرات السنين .

والحقيقة الثالثة هي ان الأنتهاء من التناقضات والاختلافات والتفاوتات عن سبيل فرض الحل بالكرباج من قبل اصحاب الحلول الجذرية فضلا عما فيه من افتراضات نظرية لا اساس لها

ولاجدوى منها فهو بسبب بعده عن الصواب في مقدماته الفلسفية يفضي الى نتائج معكوسة اولها وأخطرها ان الآمر الناهي بعد فرض الحلول المذكورة يكون أشد قدرة على الأيذاء والمضايقة وفرض الذات في مختلف الشكول والصور فما كان تاجر الشورجة ببغداد أو قيساريات موسكو على مدى التأريخ في الماضي منذرا مروّعا عشر معشار الشرطي أو الكادر الحزبي الذي تلمع خيزرانة الحل الجذري في قبضته الحديدية . ومما يزيد الشر بلاء هو انه بقدر التخلف للبلد الذي يخضع للجذريات تكون غطرسة الآمر أشد وأظهر وأقتل للأمان فالبلدان المتأخرة لم تتأصل فيها مقاييس العدالة وسلامة السلوك كي يرتدع بها حامل الكرباج . ونحن اذ نقول :

الحلول الجذرية في صيغة الجمع فقد صدقت الكلمة من حيث ان الاجتهادات الفوقية التي لايطمع احد في المستويات التحتية في نقدها ابتدعت اشكالا من الحلول والمعالجات النهائية كان كل منها موافقا لمزاج مبتدعه حتى صرنا نجد رئيس بلد عربي ثائر يأخذ دور المنادي فينادي على فاعل الخير من رؤساء الدول العربية على وحدة بلديهما لقاء اغراء من المبادئ ومن اموال النفط ولاحول ولاقوة ...

والحقائق الثلاث الآنفة قليل من كثير كله ادانة للحدية والتطرف والتماس الدواء من بلسم التناقض .

ان الافكار المطلقة من أية جهة كانت تتسم بشمول ينسحب كالمساء او الفجر على المرئيات كلها فلا يفلت صغيرة أو كبيرة إلا حواها ويبرز من ذلك هم وثان وعاشر على مدى الزمان لأن الحقائق الصلبة العنيدة تظهر بطلاقة دون ان تدري انها تعارض بعضاً من مقولات تلك الأفكار فقد حدث ان كرة الارض هذه كانت تجهل ان دورانها حول الشمس حقيقة تزعج افكارا غيبية استقرت على افتراض ثبات الأرض في مركز الكون فظلت تدور في خفاء حتى ظهر ذكي من علماء الفلك ادرك سره فكشفه للناس فوجبت معارضة هذه الحقيقة المزلزلة لقيم قامت على

سكون الأرض بارغام الفلكيين على انكار دوارنها فأنكره من عزت عليه نفسه واحترق من لم يوافقه مزاجه على مطاوعة ذوي السلطان وكان لنا قبل ذلك بقرون مشكلة حول خلق القرآن وقدمه شغلت الحاكم والمحكوم وطحنت اناسا وسجنت آخرين ولقي بعضهم سبيلا الى الهرب فنجا بجلده ويقينه وتوالت بعدها النماذج من تحكم (الرأي الواحد) عبر التأريخ اللاحق حتى يومنا هذا فتنامت المحنة وعظمت البلوى في القرنين الأخيرين بازياد عدد المنخرطين في مناقشة الأفكار والبذل من أجلها وتنوعت المدارس والفلسفات التي دخلت حومات المنازعة والمدافعة وتفاقمت المشاكل نتيجة ازدياد البشر وفيض المنتجات وتشابك المصالح الكبرى ومادون الكبرى وكان لاتساع مصادر الاعلام وسرعة تبليغها الأثر الحاسم في اختزال الزمن اللازم لنضج اسباب الانفجار وتلك امور معروفة ما كانت الحاجة تدعو إليها لولا ضرورة من ضرورات هذا الاستطراد استدعتني الى المرور بها كي اقول فيها قولا خاصا بي من زاوية الهموم التي تنبثق من ادامة النظر في اسباب الكوارث لا الكوارث ذاتها فقد تعاظم الهم عندي بقياسه الى ماعند غيري حين وجدت ان غالبية الخلافات والمفاسخات تحدث لابطبيعة الاشياء وانما بطبيعة النفوس او بهواها وشرتها وانطلاقها من كوابحها أو بعماها وسفهها وغرقها في الأفن والضلال والفرق شاسع بين تعليل الكوارث بطبائع النفوس وطبائع الأشياء فانه اذا كانت طبائع الأشياء تقتضي هذا التذابح كانت المعاناة في الحديث عن مغاليتها وإبطال حكمها ضربا من العبث لانه من قبيل الحديث عن منع برد الشتاء وثقل الحديد ومرارة الحنظل ويكون اجترار همها سخفا عقيما لاطائل تحته . ويبدو ان عامة المثقفين مرتاحون الى التفسير الطبيعي في تعليل الكوارث الاجتماعية فانتفت عندهم الدواعي لحمل هم لاعلاج له بنظرهم . ومن المفكرين أناس دققوا النظر وغاصوا الى ماتحت السطح المرئي للمجتمع فنقلوا سبب المفاسخات من صورته الطبيعية الساذجة الى صورة اجتماعية ممثلة في تباين المصالح فمنحوه قوة السبب الطبيعي في تعليل شؤون البشر وبهذا اخضعوا في الظاهر

اسباب التناقض الى علاج منتزع من طبيعة تلك الأسباب حسب نظرياتهم من حيث ان معرفة العلة تكشف هوية الداء ويكون الخلاص من الشر في نظرهم بالخلاص من السبب المادي المصلحي الذي يغري بالشر. والملحوظ على هذا المنحى الفكري شيئان في غاية الخطورة أولهما ان حتمية الشر مفترضة في هذه النظرية كما كانت مفترضة في الأخذ بالسبب الطبيعي والفرق بينهما هو القول بامكان علاج الشر عن سبيل منع سببه وهو الخلاف على المصلحة وهم ينسون ان علاج الادواء كلها بحصر سببها في شيء واحد تسطيح مهلك للمجتمع لايفيد فيه علاج وحتى هذا العلاج المصلحي يكون قاصرا بسبب تجدد المصالح وتنوعها وتكاثرها وتطور الميول والرغبات والموديلات وتفاوت المستوى بين القدرة الشرائية وكلفة السلعة فلا يمكن مثلا تصور الصورة التي سيكون عليها المجتمع بعد مائة سنة كي يمكن تصور المصالح التي يختلف فيها الناس حتى يتسنى التهيؤ لدرء شرورها بالعلاج المناسب منذ اليوم بل لاحاجة بنا للركون الى احتمالات المستقبل في تجدد المصالح وتكاثرها ويكفي ان نتمثل استحالة رضا الناس في توزيع العمل والمناصب والمسؤوليات والمكافآت بينهم حتى بافتراض ان ذلك يتم بقسطاس مصنوع من محض العدالة او بالقرعة التي لاغش فيها او بحسب الكفاءة الموثوق منها وكل هذا كلام مسطور في الورق ينقاد للقلم بحركة اصابعي فنراه مع ذلك لا يتلائم مع الواقع الذي نتصوره وهو شيء على بعد سحيق من الواقع الذي يتنفس ويتبدل ويتجدد ويضطرم فتجيش فيه النفوس والقلوب بالرغبة وتقمع بتعذر الاشباع فتعيش على قلق ولولا خوفها من الكرباج المرفوع عليها لآل بها القلق الدائم الى الانفجار.

والشيء الثاني هو انهم ينسون الانسان كسبب مباشر للشر والخير. ولست اتوسع هنا في الكلام عن توزع طباع الناس وقدراتهم على انماط ودرجات في القوة والضعف والصلاح والفساد والرفض والقبول وتنوع اجتهاداتهم في الخير والشر ومايجب وما لايجب من الوسائل

المؤدية الى المطلوب والمانعة من المكروه وأنساق مع منطق اولئك المفكرين في التماس العلاج من توفير الاشباع المادي الكافي وأخطو في ميداتهم الى نهاية المدى فسأجدهم اخيراً أمام نتائج لم تكن متصورة ولا مطلوبة في مبدأ صياغة فلسفاتهم إذ انهم سيعجزون عن تحقيق الوعود المبذولة بالكلام والكتابة فينتهون الى ضبط وتحجيم رغبات الناس وحاجاتهم في نطاق ماتستطيع فلسفاتهم في التطبيق من توفير الاشباعات المادية فاذا عجزت عن توفير السيارة الواحدة للأسرة الواحدة ألزمت الناس أن ترضى بالواحدة للأسرتين والثلاث وللعشر على حسب النقص في اعداد السيارات المنجزة وسيروج تمجيد الحافلات وتقبيح الاستئثار الفردي بالسيارة الواحدة في الأدبيات الرسمية فترتد الدعاوي العريضة من (توفير الحاجات) الى (كبح الرغبات) طريقاً للوصول بالبشر الى الجنة الموعودة . ولست اتطرق هنا الى دور الحافز في نجاح المشاريع وكيف ان قتله بذريعة تأصيل (روح الجماعة) في الحلول الجذرية يقتل الابداع والوفرة فذلك له مقام آخر فأعود الى ماكنت بصدد الأستطراد فيه فأقول من باب تنويع الكلام اني سمعت شخصا ذكيا قبل أكثر من خمس عشرة سنة ان الفلسفات التي تبالغ في فكرة (التأميم) تأتي فتؤمم (الأنسان) أولاً بتجريده من القدرة على النقد والرفض والأختيار فيصبح تأميم مقتنياته واهمال رغباته بعد ذلك تحصيل حاصل . واستخلص من هذا حقيقة أخرى كثيرا ما ترددها الفلسفات الآخذة بفكرة التناقض والفواسخ والتفسير المصلحي وهي ان مجتمعات الحلول الجذرية لاتحدث فيها ازمات اقتصادية ويؤخذ ذلك على أنه دليل صواب الفلسفة المأخوذ بها لحل تناقضاتها . وواقع الأمر هو ان اختفاء الازمة يعود الى فقدان الارادة والقدرة على الرفض والطلب في تلك المجتمعات ذلك ان اظهار الرغبة فيما يخالف القوانين والأنظمة السائدة محرم من حيث الاساس ومفلسف بان الشعب الذي لاتناقض فيه لايجد نقصا يدفعه الى الاستياء فكيف يرتد على نفسه ؟

الازمات تحدث في المجتمعات القادرة على التعبير عن ذاتها ورغباتها والمالكة للوسائل المعينة على الأفصاح . ولايدخل في هذا الحساب حالات القهر العنصري والديني والاحتلال الأجنبي التي تتجاوز في اسبابها عامل الاقتصاد وتأتي القوى الكبرى واتباعها بخلق ظروف او بذل أمداد وارشادات تساعد على انبعاث المعارضات والانتفاضات لسببٍ حقيقي أو مُفتعل ولسنا هنا في صدد توزيع اللوم والمباركة حتى نحاول الأحاطة بمثل هذه الأحوال ولكن يظل الاقتصاد بوصفه سببا للأزمة سمة المجتمعات المتقدمة القادرة على الرفض والقبول والمتصرفة بحق المطالبة .

ان نصيبي من هم هذه الأحوال يتعاظم بفعل قناعة رسخت في وجداني وهي ان الاخذ بالسبب الطبيعي والمصلحي لانبعاث المآسي يقود الطبيب المداوى الى الدوران حول العلاج فلا يصله لان المركز الذي يتمحور حوله ليس مكمن العلاج فكما أن الارتفاع بجدران السجون لايعالج سبب الجريمة كذلك الأمساك بذيل البضائع والمصالح لاينزع الشر من الصدور : علاج الشر لايتأتى الا من علاج البشر واقصد بذلك وجوب الرجوع باسباب مايقع من شر وخير الى الانسان نفسه باعتباره علة العلل لكل حدث اجتماعي فهو نفسه يخلق البضائع التي يحاول المحاولون تفسير سلوكه بها . لو ان هذه البضائع تنزل على البشر من الفلك جاهزة للاستعمال مشحونة بمعاني الغواية والهداية لكان من المقنع ان نعلل تصرفه على ضوء ايحاآت هذه البضائع تعليلا ماديا طبيعيا واضح السبب ، لكنها لاتنزلُ من الفلك بل ترشح من دماغ الانسان وتكون قد عاشت معه في صورة مادة اولية مرت بالمراحل التصنيعية المتابعة تحت سمعه وبصره وتؤول الى السوق حيث يعرضها الخيرون او الشريرون فيرفضها بعض الناس ويُقبل عليها الآخرون . ثم ان انجذابه اليها ونفوره منها ليس استجابة آلية محتومة فالبشر نفسه يمر بمراحل العمر المختلفة ولكل عمر بضاعة توافقه أو تفيده وقد يحرن احدهم فيرفض مايوافقه ويأتي الوالد فيشتري لطفله لا لنفسه وحكاية وكالة الوالدين عن الصغار في تقدير مصالحهم ومقام ذلك في نظرية المصالح

والتناقضات حكاية ليست هينة أو مختصرة واقول فيها بأقصى الاختصار انه لاينهض غير التفسير البشري بوضع هذه المسألة في موضعها الحقيقي بلا قلق أو افتعال حتى يمكن تعليل موقف بعض الآباء من ابنائه ببيعهم لغيرما حاجة ملحة وموقف بعض آخر في التضحية بالنفس من أجل سلامة الأولاد .. ارجع الى الاسترسال فاقول انه من الغفلة ان نأخذ بالتعميم في مسألة البضاعة والصناعة فلا يصح القول ببساطة ان البشر يصنع المصنوعات ويخترع المخترعات فان قلة قليلة منه تخترع وتصنع لان القدرة على الابتداع قابلية نادرة ويلزمها الأمكان حتى تؤدي دورها الحضاري فلربما هلك المخترع في توفير مستلزماته أو أهلكه من لايعجبه العجب من ذوي السلطة او الطمع أو العدوان . والقدرة على الصناعة مشروطة بشروط لاتتحقق لكل من هب ودب فقد بقي الفلاح يدب وراء محراثه قرابة ستة الاف سنة دون ان يفكر في زيادة فاعليته قيد شعرة فالمقولة التقليدية ان العمل اساس تقدم الانسان وان العمل يصنع الانسان كلام عاطفي مغرق في التقهقر فقد قلنا منذ لحظة ان الفلاح لم يزد في فاعلية محراثه بل انه لم يصنع محراثه خلال خمسة آلاف عام وبقي يشتريه من المدينة . والبشر في العمر الواحد والطبقة الواحدة والمهنة الواحدة لايتماثلون في رغباتهم وتصرفاتهم فان عمر بن عبد العزيز والمهاتما غاندي لم يشتهيا التجبر والتكبر وتجييش الجيوش ولكن نيرون كان ينظم الشعر ويعزف الموسيقى على حريق روما . وتأتي الخلفية الثقافية بما فيها الدين فتطفئ في الناس رغبة وتذكي فيهم رغبة أخرى فتتغير خارطة المصنوعات من بلد الى بلد بتغير الخلفيات والتربيات والايحاءات .

قد تجد عبقريا يستخرج من نواميس الكيمياء والفيزياء اساس اختراع رائع فاذا حققه تلقفته الشركات والحكومات لتستغله في الربح فتحوله عن وجهته الشريفة الى وجهة يستنكرها ضمير المخترع . والمادة مهما يكن شأنها من الاعتبار والخطورة فهي لاتغري ارادة الانسان اذا لم يفهمها ولاينشط اليها اذا لم يقدر عليها كالنفط في اعماق البحار .

ورب بضاعة جيدة سقطت لسوء عرضها أو بسبب المنافسة الظالمة أو عدم ملاءمة اوان العرض . ان مهارات الانسان وقدراته على الخلق وحسن تصرفه في نواميس العرض والطلب وادراكه للذوق العام وللنزوة الوقتية تعمل عملها من جهة يقابلها الرغبة والحاجة وقوانين الاعراف والدين والبيئة ومجمل الخلفية الحضارية للناس وما لا يحضرني من عوامل مماثلة من الجهة الأخرى وتدخل في مواجهة هذين العاملين فنون لاحصر لها في المنافسة والأحتكار والخزن وتنويع الموديل مابين ساخن ومعتدل وخفيّ وصارخ قبل ان نحرك الشفة في القول بان الظروف المادية او المصلحية اقتضت كذا وكذا وقد وجدنا هذه الظروف كلها من صنع البشر وتخمينه وتقديره خاضعة لارادته الغبية أو الذكية ، الخيرة أو الشريرة فكيف نجرأ ان نسارع الى (المصلحة) او عموم المادة لنعزو اليها الحوافز والروافض وضروب العوامل من تحريم وتحليل وتجليل وتحقير ورفض وقبول ونصور البشر تجاهها مخلوقاً فاقد الارادة أو مكبلا بأصفاد غير مرئية الى قوى الجذب والدفع من تلك المصالح والمواد ونحن نعلم اول مانعلم انه لامصلحة ولا مصنوع ولا قانون أو نظام او دستور او عرف خارج وجود البشر وصفاته العالية والهابطة ! كيف نعتبر القصاب مجذوبا والذبيحة جاذبا ؟ ان التحليل المادي والتسبيب المصلحي من اية جهة كانت يجعلنا نعتبر البشر في صيد الثعلب بالفخ أسيراً أسراً مضاعفا : مرة للثعلب طلبا للحمه وفروه ومرةً للفخ باضطراره لاستعماله في الصيد .

ويكون في صنع الحرير اسير دودة القز وفروع الشجر وضروب الآلات المستعملة في الغزل والنسج والعرض والبيع ومالا يحضرني من حيثياته وتنتصب الدودة والشجر والأصباغ والانوال والاسواق وقبلها انتصب الثعلب والفخ كلها حكاماً على ارادة البشر . والغريب في أمر علماء الاجتماع انهم لايعتبرون الذئب اسير الثعلب ولا العصفور اسير الدودة في عملية الصيد والاقتيات ، والسبب الاوحد المتصور في موقفهم المقلوب هذا هو أنهم لايجدون للذئب

والعصفور تأريخاً واجتماعا وتطورا حضارياً ليردوه الى الاسباب المادية المصلحية فلا بأس في ترك الذئب يفترس الثعلب على هواه وليكن هو الجاذب والفاعل بدافع الجوع وبالمقدرة على الأفتراس . ثم انهم لا يلتفتون الى عامل التناقض في الذي يقع بين الذئب والثعلب من حيث ان التناقض لايؤدي الى تطور الذئب كما يزعمون انه الباعث على تطور البشر . ويسكتون أيضا في سلبية الذئب واللقلق وسائر البهائم تجاه ظواهر الجو واطياف السماء فلا تحوك حولها قصص الاساطير وبيوت القريض وضروبا من الخيال والنجوى وطقوس العبادة كما يفعل البشر ولكنهم اذ يجدون البشر قد عبد ظواهر الطبيعة وقرب القرابين للبراكين وصنع الطواطم والطلاسم دفعا لأذى المغيّبات فقد وجدوا لزاما عليهم ان يشكموا وعيه وارادته بخيوط الأنجذاب الى هذه الظواهر والخضوع لسيطرتها عليه . انهم سامحهم الله يكبلون ارادته في كل شيْ يبتدعه عن سبيل تعليل تصرفه بالانشداد الى اقتناء مايبتدع من مصنوع فجعلوه اسير الاقتصاد الذي هو خالقه واسير السياسة والبيئة والتناقض والحوافز فهو في تعليلاتهم عنكبوت وقعت في نسيج العنكبوت وتكون البهائم من باب مفهوم المخالفة قد تحررت من قيود الأسر هذه لأنعدامها في دنيا البهائم ! !

لقد كان العلماء احرياء ان يمنحوا البشر اعتبارا خاصا في تقديمه القربان الى البركان والطوفان دفعا لشرهما بسبب مافي عمله هذا من زيادة فهم امتاز بها على البهائم فقد ربط بين الغضب وبين الترضية بالقربان في هياج البركان قياساً من اطفاء غضب اقوياء البشر بالهدية والاستسماح فان ادراكه لربط الهدية بالترضية في شر لايدفع قبل عشرات الوف السنين هو الذي نما وسما فيه الى اختراع مانعة الصواعق وآلة قياس الزلازل . لقد كان البشر والبقر عاجزين عن الطيران وكان كلاهما أسير البيئة وقوانين الطبيعة ولكن الوعي البشري الذي يستعبده الفلاسفة لحساب المادة الميتة دفعه في مسالك الموازنات والمقارنات فانتقل من ملاحظة ارتفاع القش والقطن والغبار على متن الريح الى التفكير في الاحتيال على وزنه المانع من الطيران بوسيلة تسخّر الهواء في الارتفاع به

عن التراب . اني ارى على عكس مايرى اصحاب التفسير المادي المصلحي ان البشر في تقديمه القربان للبركان امتاز على البهائم مرتين وخرج عن (الشيئية) مرتين فهو قد ربط بين الترضية والهدية طلباً للأمان بعد ان كان قد ربط بين ظاهرة البركان وبين وجود ارادة غير مرئية وراء ثورانه : صحيح انه أخطأ في كلا الامرين فقد كان البركان ميتا فلا يملك رغبة يمكن ترضيتها بالهدية . واخطأ في تصور ارادة خاصة وراء ثورانه لانه كان قاصرا عهدئذ عن ادراك العوامل الفيزيائية المؤدية الى ثورة البركان ولكن الملحوظ في كلا الخطأين ان البشر وحده دون سائر الموجودات فكر في اتقاء شر لايقاوم بالوسائل المعتادة من هروب واحتماء وغيره . اما السلبية والجمود وعدم الأكتراث فهو امر خليق بالحجر والشجر والبقر وسيظل كذلك حتى ابد الآبدين .

ليس همي منبعثاً من منح الحاجات والمقتنيات ماتستحق من اعتبار في انشغال شهية الانسان وأمله وطمعه بها فان هذه الاشياء في حد ذاتها مظهر تحقيق البشر لسيطرته على المادة واية فاعليته في دنياه ولم يصنعها ابتداء الا لسد حاجاته واشباع رغباته وهي تتطور الى الأحسن بتقدم مهارات البشر وتتنوع اصنافها بتوزع الرغبات على مختلف الشكول والطعوم والألوان . ولكن همي منبعث من الاجتهادات الفلسفية العجيبة الغريبة في تصوير ساحة المصنوعات والمنتوجات على أنها لوحة اعلان يذاع فيها تابعية البشر ومتبوعية السلع ثم يقام اقبال الناس على السلع دليلا على صحة تعليل تصرفهم بالسبب المادي المصلحي على نحو يعطل دور خالق تلك السلع بتصويره تابعا لامتبوعا ومسحوبا لاساحبا ومُكرهاً لامختاراً ومرآة عاكسة لا واعياً . والواقع هو انه اذا كان في السلع وسائر المروضا ، قوة جذب وقهر لأرادة الانسان فالقوة تعود لصانع السلعة أو عارضها أو المروج لها ومحتكرها والمتاجر فيها فهي تعود للبشر نفسه وليس لمصنوعاته فالسلع لم تكن موجودة اصلا وما كانت لتوجد مستقبلا لولا مهارة البشر ولم تحمل مسافة آلاف الاميال لتعرض في سوق الحلة أو بيروت الا ان تجذب شهية الانسان في المدينتين . فهاهنا

إرادات ورغبات بشرية تتعاون بالعرض والطلب على إعمار السوق بالسلع النافعة او الضارة وتدخل هذه الارادات والرغبات من اطراف معادلات البيع والشراء في لعبة اقناع أو اخضاع متبادلة تمارسها كل جهة كما تمارس الشطرنج او المبارزة بالسيف لحمل الجهة الأخرى على الرضا بشرطها وقد تدخل الدولة طرفاً ثالثا أو ينبعث الحرامي أو يقع مالا يحاط به من افاعيل البشر لترويج البضاعة أو تعطيلها أو اعدامها . انك اذا التقطت أي خيط للتجاذب بين اطراف المتعاملين مع السلعة وجدته يمتد عمقا الى اغوار ضاربة في بنية الجماعة وضمير الفرد ووجدت البضاعة تتذبذب مع الخيط من انشداد الارادات اليه أو شدها له والبضاعة اتم مايكون فقدانا للارادة وعجزاً عن الرفض والقبول ومطاوعةً لما يُراد بها أو لايُراد . فاذا كان مقدراً للتعليلات المادية وغير المادية ان تنهض بتفسير سلوك الانسان وجب ان تتمسك بالحقائق الفاعلة في الدنيا الفسيحة حول البشر فتقول ان الانسان حين يريد تحريك رغبات الناس او قهر ارادتهم يستعمل مهارته وقدرته على الاقناع والارغام عن سبيل الوسائل المتاحة في تحقيق ذلك منها الاغراء بالسلعة المشتهاة ومنها استعمال القوة ومنها المنطق ومنها الأخلاقيات ومنها الشعوذة وغسل الدماغ ومنها المعتقدات والآيديولوجيات ومنهاالتحبيب والتكريه ومنها .. ومنها مما لايخرج قطعاً عن اطار مايبتدعه الانسان من صنوف الوسائل فهو نفسه خادع ومخدوع وتابع ومتبوع وساجن ومسجون وقاتل ومقتول وطيب وشرير وعالم وجاهل و .. و .. ولكل منهم اسلوبه في الاقناع والاقتناع في الاخضاع والاذعان . فاذا قال قائل ان الناس المتماثلين في احوالهم يتماثلون في تصرفاتهم فيقتربون بذلك من ضمور الارادة الذاتية الشاخصة وانتفاء التميز الفردي . فذلك قول يكشف عن غرام قائله بقمع شخصية الانسان فكأنه التزم أمام محكمة الفلسفة على نفسه باثبات قوة (الأحوال) وتفاهة (الارادة والأختيار) . وانه لواضح ان مثل هذا الرأي ينبع اصلا من تمكن التفسير المادي في العقول والا لكان التدليل على فقدان الارادة والاختيار لدى غير البشر أسهل بكثير من

التصدي لطمس ما هو ظاهر من ارادة البشر في غير حالات الارغام . انه أسهل عليك ان ترى القميص فاقدا للارادة من أن ترى لابسه منقاداً الى القميص . واقرب الى المعقول ان تحكم بمطاوعة سنبلة القمح لحاصدها من ان تصادر ارادة الانسان امام اغراء السنبلة . ان التفسير المادي نشيط ومثابر في طيّ خمسين الف سنة من جهد البشر في الانتقال من حياة الكهوف الى التحليق بالطائرة ويخادع ذهنك في طمس قابليته المميزة له كي يحملك على تقبل الطائرة طرفاً اقوى في معادلات التطور باعتباره للطائرة حاجة مادية من حاجات المجتمع في عصر الكهرباء أغرت الانسان وسيرته وقسرته وعلقته من عرقوبه في صنارة مذهب التناقض .

ولا اجد بأساً في الرجوع الى مناقشة القول بتماثل تصرف الناس في الأحوال المتماثلة ذلك ان الناس لايتشابه كلهم لانهم ليسوا مواد جامدة مسيرة بالدسائير الازلية الابدية المحددة فالأخوان الشقيقان لايتماثلان في التصرف رغم تماثل حظهما في البيت الواحد والبيئة الواحدة . فاذا فرضنا المستحيل وتحقق التماثل المطلق للناس في كل شيء يخطر على البال فانه من المضحك عندئذ الا يتماثلوا لاننا نكون عندئذ في مواجهة معادلة بسيطة لامجهول فيها (١+١ = ٨ — ٦ =٢ — ٠ =.....) اما اذا حصل انهم تفاوتوا في حجم المعدة فقط اذا لاختلفوا في الشهية وكمية المأكول ومقاس الفاتيلة والحاجة الى الهواضم . وليفعل التناقض والتماثل مايروق لهما فهما مرغمان على التكيف مع حجم معدات الناس . فاذا أضيف اختلاف قوة النظر الى اختلاف حجم المعدة زادت مشاكل التناقض بنسبة هندسية ولو لحقهما تفاوت في القدود احتار التناقض ماذا يفعل مع هولاء الذين كانوا مريحين وهم متماثلون .

الواقع هو اني حائر في كيفية الأبانة عن فاعلية الانسان الى جانب معمولية غيره من الموجودات ارضا وماء وسماء وامواتا واحياء خلال مئات الألوف من السنين منذ ان تفتق مخه عن عامل (العقل) الذي ميزه تمييزا حاسماً عما سواه ذلك ان التشابكات التي تحدث في بنية المجتمع

وتصرف الفرد الواحد تبعث على الاندهاش وتعطيك ارقاما لنوع السلوك الهابط وغيره تذكرني ان حدما تما يروى من مخترع الشطرنج الذي اراد حاكم بلده ان يكافئه فطلب منه المخترع ان يملأ له خانات الشطرنج الأربع والستين حبات الشعير على ان يضع في الخانة الأولى حبة واحدة ويضاعف الحبة في الخانة الثانية فيضاعفها في الثالثة والرابعة حتى يأتي على نهاية خاناته فوجدوا ان شعير الدنيا كلها لايكفي وفاء بحق الخانات جميعا . واستعين هنا في توضيح غرضي من استفحال التشابكات التي مر ذكرها من بضعة أسطر بكلام ورد في خطاب واحد من رؤساء المجمع العلمي البريطاني ضمنته اهدية السنوية لمجلة المقطم المصرية في اوائل الثلاثينات فقد قال في تصوير لغز الحياة انه اذا كان في امكان عالم الفلك ان يتنبأ على وجه الدقة بعدد الخسوف والكسوف خلال مليون سنة قادمة فليس في امكان علماء الارض مجتمعين ومتعاونين ان يتنبأوا بتصرف ذبابة يطلقونها في غرفة فاقول انا بعد اكثر من نصف قرن : ياترى كيف يكون التنبؤ بتصرف خلايا

النحل البشرية في مدن المليون والعشرة ملايين نسمة المشحونة بتعقيدات التشابكات الحاصلة من اختلاط مردودات اجتماعية وفردية مابين تراثية وعصرية وعلمية .. اسطورية .. اقتصادية .. كهربائية .. مواصلاتية .. خضرواتية .. قماشاتية .. حكومية .. اهلية .. محلية .. عالمية .. رجالية .. نسائية .. علاجية .. حزبية .. سلطوية خفية ومنظورة تمتد كالظل أو خطوط الطول والعرض تملأ لوحة الدعر التي تتلطخ ابتداء بالذعر من مدير المدرسة ومن المتعفرت في الحارة ومن المهددين وراء شارات وعلامات في الصدر والذراعين تنذر بالويل والهول حتى يدفعوا الجزية صاغرين فتتبخر في هذا المرجل الفائر عقلانية دساتير التناقض والمصلحة وحسابات المنظرين على الورق الأملس .. ذبابة واحدة تنطلق من اسر النظريات والتنبؤات والتوقعات فكيف بخمسة آلاف مليون انسان توزعوا على ألوف الأرومات والمعتقدات واشتبكوا بأصناف لاتحد ولاتعد من المشاكل والتحديات ومالا يمكن حصره من كيفيات وكميات فردية ووطنية وقومية ودولية

وكونية وما لا نهاية له من المشارب والميول وضروب التسلية وأشكال الحرام والحلال ونعلم ان كل فرد من اولئك المليارات خليق ان يتميز حتى عن صاحبه وشقيقه بنزوعاته وقناعاته وعقله الباطن والواعي وتجربته في الحياة وما يريحه ومالا يريحه بل هو قابل للتميز في يومه عنه في أمسه تبعاً للمزاج واختلاف الموحيات وصنوف المعوقات والمنشطات ومامن احد في هذه الدنيا استقام على وجهة معينة الا وكان خليقا ان يستقيم على وجهة أخرى لو تهيأ له ان يمر بتجربة مباينة للتجربة التي قولبت قناعاته أول مرة وان شعرة واحدة يمكن ان تفصل بين اتجاهه الى الايمان بالغيب والكفران به كأن يكون قد احتك في شبابه بمؤمن أو بملحد وقد يتحدد اتجاهه الى اليسار أو اليمين بصدفة تسوق اليه مرشداً يمينياً أو يسارياً وكم من الناس يتزلزل ايمانه في الداخل أو ينهار بالمرة ولكنه يخجل من الظهور بغير المظهر الذي أنسه الناس منه وكم منهم يبدل ايمانه بدريهمات قليلة ومنهم من يبذل دمه ولايغير ايمانه .. انك اذا نبشت في تصرف المغرم بالقمار والمغرم بالمكايد والمغرم بالحمام أو بالملاهي او بالكذب او بالهوى او بالتمسكن او بالتعالي والمغرمين بكل أصناف المتناقضات لعجبت اي عجب مما تكتشفه اموراً لاتخطر على ذهن الفيلسوف فقد يبخل احدهم على وطنه بدرهم واحد ولكنه يبذل روحه في اطفاء رغبة سخيفة تهيج نفسه الى السرقة مثلا وقد يتبلد حس احدهم فلا تحركه مصائب الارض والسماء ولاتستهويه مباهج الاولين والآخرين . ان الذي يعتاد المخدر يبيع نفسه ومعها والديه في توفير (الكيف) وقد يفعل المنتمي الى فكرة سياسية مايفعله المدمن من السفالات ولن تعدم ان تجد المؤمن بالأفكار السلمية قد دفعه حماسه المبالغ فيه الى الافتاء بقتل كل من لايؤمن مثله بالرحمة والسلام ... ملايين ملايين المهووسين بالافكار المتطرفة لايترددون في تفجير الارض بمن عليها وما فيها تطهيرا لها من إثم البشر . والاستطراد في هذا الباب لاينتهي الى غاية وكل كوة للنظر تطالع العجب من أمر هذا المخلوق الذي تحاول النظريات نصب شباك التعليل والتفسير حوله لجعل ارادته وأمله وتصوره مصدقة

لتوقعاتها فلا تفوز واحدة منها بطائل الا ما كان متحصلا من استعمال العصا او الاقناع او التضليل ولا نهاية للانواع المتعددة من هذه الوسائل . فالقول بتماثل الناس لأنهم بشر كلام في سذاجة من يتصور ان نجوم السماء متجاورة في واقعها كما تبدو في النظر . غير ان الذين يقولون في ظاهر القول بتماثل البشر لايتركونه للقوانين التي يشتقونها حسب زعمهم من مقتضيات الطبائع بل هم اشد الساسة والمسيطرين في تكبيل الارادات بالموانع والروادع لانهم يعلمون يقينا ان الكلام الذي يزخرفونه ببراعة هو من السلع السياسية المستعملة في تبرير مايتبعها من صنوف الحظر والتحجيم والردع والتوجيه . وتجد في النهاية الأخرى ان الذين يقولون الحق بتفاوت البشر في الرغبة والطبيعة يتركون لهذا التفاوت مجال الأختيار ويسنون من القوانين ماهو مستنتج من رغبات الناس فاذا تغيرت الرغبة العامة تغيرت القوانين تبعالها وتكون وسائل التعبير عن الذات قد تيسرت لكل الناس قبل ان يكون احترام الخيارات موضوع بحث وواضح ان الحالة الاجتماعية التي تنطق فيها الخيارات والارادات لا تقرر قطعا استعمال الكرباج والتهديد بالمصائب فاللبنة الاولى في اقامة بنيان اجتماعي على احترام الارادات هي مبدأ احترام ذاتية الفرد وهو يقتضي ابتداء الاعتراف بوجود تفاوت في الرأي والرغبة والنظرة المستقبلية ولايكون ذلك ممكنا الا في ظل حالة اجتماعية ارتاحت الى فلسفة (عش ودع غيرك يعيش) في اقل مايمكن من احتكاك بين الارادات فيكون اعتزاز الشخص برأيه متضمنا الاقرار بحق الآخرين في الاعتزاز ، وكل اتجاه الى حجب حق الآخرين في ممارسة خيارهم سيؤول حتما الى اطلاق نظرية التناقض لتعمل عملها في الانتهاء الى بقاء جهة قوية واحدة استطاعت ان تهلك الآخرين . وياعجبي من مصير البشرية لو كان في المستطاع تطبيق مبدأ التناقض تطبيقا منهجيا فلسفيا منذ ايام السومريين والفراعنة القدامى فاستمرت عملية التصفية والاختزال جيلا بعد جيل تطحن وتقطع وتزيل في طلاقة لاعائق يعوقها . نحن نعلم بداهة ان الاختزالات لم تكن قليلة ولا هينة عبر الماضي المليء بالكوارث

ولكن الذي جرى في التأريخ من اختزال وقع وقلع كان بلا نظرية تبرره وتدعو اليه وتحدد الأصناف المطلوبة ازالتها عن عمد وسبق اصرار الا في حالات مؤسية تحكمت بها العقيدة المتزمتة المستغرقة في ذاتها . ثم ان الأخذ بقدسية ومشروعية الاختزال عن سبيل الايمان بحتمية مقتضى التناقض لايبقى اي متنفس يرتاح فيه الناس الى دواعي المهادنة والمعايشة وتبادل المصالح فكل بيت في الحارة يمكن ان يتهيأ لاختزال جاره بسبب من تعارض المصلحة . ومن مثل هذا المنطلق كانت المذابح الدينية ينشط فيها الى القتل أناس ماذبحوا في حياتهم دجاجة . ان الاستهانة بالارواح والأعراض لاتكون هينة على مقترفها الا حين تسقط في نظره القيم الاعتبارية التي كانت معترفاً بها للضحية فيما سبق من زمان فليس من السهل ان تمتد يد الكهل الى عرض كائن آدمي اذا كان في ضميره اي قدر من قدسية ذلك العرض بل ان المعتدى لايتعب نفسه في هدم دار أو ردم بئر او قطع شجرة حتى تكون هذه الاشياء نزلت في سقوطها عن مستوى انعدام القيمة والاعتبار في نظره وإلا لاكتفى بقتل صاحبها ووفر على نفسه متاعب الردم والقطع والهدم فالراجح ان تلك الاشياء صارت تمثل (قيمة ملوثة) وجبت ازالتها . ان الانتهاء من الصور التي يمكن ان تتم عليها الاعتداآت دون تدخل تعارض المصلحة المادية أمر خارج الامكان ومنها مالا يمتد اليه الخيال قبل أن يقع . ولا يعنى تعداد هذه الصور أو عدم امكان تعدادها ان الوجود شر متصل فلو شئنا لعرضنا صورا للفضائل توهم ان الدنيا كلها خير متصل ولكن الذي أرمى اليه في ضم الصور المتباينة بعضها الى بعض هو فضل تمهيد لقبول ماأقوله من ان مصدر العلل من فضيلة ورذيلة هو البشر نفسه فانه مامن تعليل لتصرفاته بالمصلحة والتناقض وبأية علة اخرى يمكن أن يصيب الهدف اذا لم يعتبر البشر عاملاً أول والأطراف الأخرى في المعادلة معمولات ومعلولات ، فانك لاتستطيع تحريك شهية الانسان باطعمة الجنة اذا كان مريضا أو صائما أو كان يشتهي غيرها أو محرمة عليه في دينه ولايمكن اغراؤه بأجمل الحسناوات اذا كان طفلا أو

شيخا طاعنا في السن او متحنفا او ناقص الاشتهاء او ملتزما بالسلوك السوي ، وخذ كل الحوافز واحدا واحدا تجدها جميعا معطلة عن التأثير مالم يكن الشخص المطلوب إغراؤه راغبا فيما يعرض عليه . وانا اذ اقول هذا لا أنفي مطلقا خطورة المغريات والروادع فالدينا من حول الانسان ثلاثة اصناف : محبوب ومكروه ومحايد ولكن المحبوبية والمكروهية لاتتحقق في البضاعة كأمر مفروغ منه فقد تختلف المحبوبات والمكروهات والمحايدات في الاذواق وفي الاعراف وفي الدساتير وفي الاديان ومن حال الى حال ومن سنة الى أخرى وعلة التغير هي تغير رغبة الانسان أو حاله او امكانه مع العلم بأن مايطرأ على السلع من تغير وتنوع وكثرة وقلة في العرض كله من صنع البشر فاذا كان في السلعة نفسها اغراء فهو بدعة بشرية الا في حالات أصبحت نادرة كأن يندر جلد السمور أو مَنّ السماء ولحم الحيتان وما اليها من موجودات الطبيعية وهي مع ذلك لاتتقدم الى السوق من ذات نفسها فلابد من بشريّ يصطادها أو يجمعها ثم يتصرف فيها بفنون الاغراء .

من الكاتبين والقائلين قديماً وحديثاً من يشبه مقام الفرد في بنية المجتمع بمقام العضو في الجسم الحي وهو تشبيه شاعري جميل ومشجع على الترغيب في التعاون وربط المصالح بعضها ببعض ولكنه تشبيه مع فارق كبير بين الحالتين ذلك ان اجهزة الجسم مجندة ابتداء لأدامة الحياة وتتعاون باتقان مرسوم في دقة الكومبيوتر ويتوقف حياة بعضها على بعضها ولكن الفرد يتصرف ضمن تشابكات اجتماعية معقدة فيها التعاون والاختلاف والاقتتال وصنوف التوافق ويموت ألوف الأفراد دون ان يستدعي موت الافراد الآخرين والجيوش تتذابح بافرادها ويجد واحدها حياته من موت الجيش الآخر ذلك ان الارتباط الاجتماعي ذو وشائج معنوية اعتبارية يمكن التملص منها او حرف وجهتها في حين يكون الارتباط بين اعضاء الجسم عضوياً التحاميا . ولكن تبقى حقيقة خطيرة جديرة بالملاحظة وهي انه بقدر توقف سلامة الفرد على سلامة الجماعة تكون قوة الحضارة ودرجة التطور ، ويتولد الشعور بالمسؤولية واحترام القوانين والضوابط فتقل الحاجة الى

اسباب الردع وقمع الشخصية . ولايجوز ان نغفل ان تفاوت المجتمعات في الحضارة يعود الى تفاوت بشرها لا الى عماراتها وفترينانها فما نشأت هذه المنشآت كما ينمو النبات في السفوح وانما ولدتها عبقرية ناس اطرد تقدمهم في العلم والفن والتكنيك فرفع معه مستوى الشارع والمدرسة والمطعم ولو انك بنيت عمارة مكيفية في الهور لجعلت سكانه محتارين في أمرها فليس البنيان أو المصنوع استاذا يعلم الناس كيف يتصرفون ويتقدمون . ولو تتبعت تصرف الفرد من مجتمعات متباينة الحضارة ودرجة التقدم من صبحه حتى منامه لوجدت مايحيّرك في تباينه وتنوعه وتناقضه بدءً بالكسل القاتل ومروراً بالصوم والصلاة حتى الغرق في الرقص والموسيقى وكرة القدم فليس الانسان هو ذلك المخلوق الذي تقرأه في الكتب كائنا من مخلوقات خلية النحل والنمل تقضي عمرها في ضم الحبة الى الحبة أو مزج الشمع بالعسل فالانسان معمر مدمر . نشط كسلان . عابد ملحد . نائم يقظ . ملاك شيطان ومتوزع على مايفوق التعداد من الأهتمامات المتراوحة بين الحدود القصوى من الصلاح والفساد والقبح والجمال ولو كان مخلوقاً مصلحياً على مقاسات النظريات لما تمكن احد من تقدير ما كان يمكن ان يبلغ شأنه من مراتب التقدم والتأخر فاذا كان منقادا وراء محض المصلحة فهو يصبح بالضرورة مزيجا من الكمبيوتر في عقلانيته ومن الحيوانات الراقية في غرائزها ولك ان تتصور (كمبيوتر بغرائز) وما عساه ان يصنع مجرداً من الهوامش العريضة للصفات والطبائع المحيطة بلب انسانية الانسان فهي ذات اثر خطير في رسم مصيره ومساره بوصفه فردا متفردا وفردا منتميا الى جماعة فخذ المثال في تتبع خيط واحد من خيوط سلوك انسان واحد وليكن خيط غرامه بالملاعيب أو ميله الى الجنس او حرصه على المادة او دقته في المواعيد فسوف تجد العجب فيما يتكلفه من الصرف على عادته المتحكمة فيه والمجازفة من أجلها وتوظيف امكاناته في ادامتها واشباعها . وبالسوء حظ المجتمع الذي يكون قويُّهُ القادر مصابا بنزغ نازغ او لوثة ملتاثة او رغبة مأفونة فالرواية التأريخية تقول ان احد الشاهات أمر أحد تابعيه

بقلع كذا الف عين بشرية لأمر لم يعجبه فلما أحصيت العيون المقلوعة وجد فيها نقص عينين اثنتين عن الرقم المطلوب فأمر بقلع عيني تابعه المقرب منه تكملة للنصاب . ويمكن قياس الفرد المعتاد الى الفرد المتسلط من حيث أنه هو أيضا يستعمل قوته المحدودة في هدم ذاته ا و ذوات الآخرين على قدر تفاهة عقله . ولابد من ملاحظة لاتخلو من وجاهة في حيثية (التعقل والمصلحة) فالمعروف ان اوائل العمر حتى طور الشباب الناصح الناضج هي مرحلة سابقة على طور العقلانية والمصلحية فهي طفولة وحداثة ومراهقة خالية من مسؤولية الانتاج والأضافة وتحرى الربح . ويكون طور الشباب الناضج هو مرحلة اجتماع القدرة والحصافة في الانسان وتأتي بعدها بسنوات لاتتعدى الثلاثين مرحلة الكهولة التي فيها الحصافة بنقص شديد من القدرة . فالعمر الذي يجمع القدرة والعقلانية هو مايقع بين بدايات فجة ونهايات تضمحل بافتراض خلوه من العقد واللوثات والتشنجات وباختزال مافيه من عبث وهراء ماخلا منهما عمر قط .

وتضاف ملاحظة اخرى وهي ان (الانثى) كانت في كثير من بلاد الله تعيش خارج المعادلات التي يُقيم عليها الفيلسوف احكامه التأريخية والأجتماعية وهي مازالت كذلك في كثير من البلاد . اما كيف تستقيم الأمور عموما بفضل هذا المتسع المحدود لاجتماع القوة والحصافة في (الرجل) فان جوابه أولا وقبل كل شيْ هو انها لم تستقم قط على حسب ماتقتضيه الفلسفات من استجابة (الانسان) لحوافز المصلحة فلا كل الناس يستجيبون ولا كل الأستجابات مصلحية عقلانية ولكنها استقامت في ماضي الزمان على وجه من الوجوه لان الحياة والمعيشة كانت تطرد يوما بعد يوم دون ان تلتفت الى هموم الفلاسفة في احتياجها الى حياة مبنية على المصلحية العقلانية كي تصوغ منها تسييباً عقلانيا لمجريات التأريخ فالدنيا كانت تدور من ذاتها بلا تدبير متقن . والحكومات تسير الدولاب على قدر كفاءتها في العدل والظلم ، والناس تتعامل مع الموجود بما تملك من وسيلة الكسب ، وكانت العادات والاعراف تستقر عبر الزمن فترسم اطار السلوك

المقبول وتتعاقب ادهار واعمار قبل ان يستجد شيء او يتراكم السوء بما يستدعي انتظار التغيير مع العلم بان اعتياد الأحوال السيئة يقلل من الهمة الى رفضها . وكانت الفتنة او الانتفاضة تحدث هنا وهناك لتعاظم ظلم السلطان أو تراكم القوة في يد الطامح او لانبعاث احساس عام أو طبقي (في احوال نادرة) بالقهر فتنقضي الفتنة او الانتفاضة على صورة من الصور أو تتوطد لها السلطة دونما نظر الى رأي الفلاح أو الكاسب أو اهل الحارة وغير الحارة . فاذا كان ذلك كذلك فقد اضحت المادة والمصلحة لاتدري كيف تدور حتى ترضى الفلاسفة الآخرين بالتفسير المصلحي للأحداث . وليس يكفي ان يكون السلطان أو مناهضه قد قدر المصلحة في الذي فعله وتركه بذكاء أو بغباء وفي الحق او الظلم كي ينسحب التفسير المصلحي على الأكثرية التي أذعنت للفتنة او الانتفاضة بلا مصلحة . فاذا غابت الارادة استوى الحارث و الثور والمحراث المسخر كله في مصلحة القوى من حيث التأثير في الحدث وقد يهتم القوي بالثور اكثر من اهتمامه بالحارث المأجور لان الثور لايعوض الا بثمن ولكن تبديل الاجير بأجير مثله لايضيف شيئا الى الكلفة .

الهم الذي اكابده في اصرار الفلاسفة على رد الاسباب الى الاحوال والمصالح والماديات ينبع ابتدة من خطأ الفكرة نفسها فقد قلت وأظل اكرر ان لااحوال ولامصالح ولاماديات في الاجتماع والتأريخ يكون لها وجود بدون بشر ولاتصطبغ آثارها في التعامل الابصبغة الناس المتعاملين معها فليس هناك شلغم فاسق وحذاء منافق حتى نفسر سوء استغلال البائع لها بما فيهما من فسوق ونفاق ، فالسؤكله نابع من البائع وهكذا يكون السوء من منفذ القانون لامن القانون في أحوال كثيرة والقانون السيء في ذاته مظهر لسوء مشرعه. والسوء يكون من القاتل لامن البندقية ومن السائق الارعن لا من السيارة. والأحوال الاجتماعية الفاسدة متولدة من الناس وليكن سببها تحكم الظالم فهو بشر يستعين بغيره من البشر في تسخير الناس المذعنين لبطره. وحين نقول على السجية ان الجهل سبب خطير من اسباب التخلف يغيب عن بالنا ان الجهل ليس شيئا

كالعقرب والذئب المتربص بل هو نقص العلم والفهم في البشر ولايمكن التفريق بينهما ليستقل الجهل بشأنه كما لايمكن التفريق بين الثلج وبرودته وبين الماء الفائر وحرارته فلا سبيل الى القضاء على الجهل الا بتعليم الجاهل ولايمكن القضاء على سوء استعمال البضائع الابتهذيب اهل السوق ولاتستأصل القذارات في الشوارع اذا بقي الناس قذرين.

ليس من شيء فيما يكوّن الاحوال والمصالح والظروف المحيطة بالبشر في مجتمعه يستطيع ان يكون مؤثرا بنفسه ولاتكون صلابة الصخر مؤثرة بنفسها منفصلة عن الصخر فلابد من بشر وصخر لتكون هناك احوال ومصالح وظروف الطبيعة وصلابة تؤثر بصلاح أو بفساد. والقول هنا يدور حول المجتمع وليس الطبيعة من شمس وريح وصاعقة فهذه اشياء منفصلة عن البشر منقادة لطبائعها ويكون اتصال البشر تالياً لوجودها لاخالقاً ويكون تأثره بها أو تطويعه لها أو عجزه عنها شيئا بشريا مرت الاشارة الى بعضه فيما تقدم من كلام.

ويتعاظم همي لسبب آخر هو في ضخامة التأريخ والاجتماع على مدى المستقبل ذلك ان الأصرار على التعلق بالسبب المادي المصلحي ومايتبعه او يسبقه من ربط الأحداث بالتناقض لاينحصر ضرره في تفسير الوقائع بغير سببها الحقيقي وهو البشر وإنما يكون اجترار الناس لهذا الخطأ الفكري الجسيم شبيها بتسرب خيط متصل من المخدر الى الجسم مع طعامه دون ان يحس به فيمتلئ منه ويقتنع به ويتحمس له ويستسلم في النهاية لمقتضاه المحتوم من منح الأهمية والأولوية لما سُمّي بالمصلحة المادية في تفسير الاحداث والسلوك وينسى في النهاية ان خالق المصلحة المادية قد سقط من موقعه الحقيقي الى حضيض الأهمال وأصبح كالحصان المربوط خلف العربة:

ان شحذ الذهن بفكرة ماعلى مدى الزمان وبدون مناقشة أو انتقاد أو معارضة من شأنه ان يطبعه بطابعها ويطوعه لمستلزماتها ويصد سمعه وبصره عما سواها ولك على هذه البديهية شواهد بعمق التأ ريخ وسعة المجتمعات واذكر هنا مما يناسب المقام مثالا من واقع تجربتي وتملك انت

مثله من واقع تجربتك فلقد حدث ان نزلت ضيفا على وجيه من وجهاء بشدر. المرحوم بابكر سليم اغا. في احدى ليالي شباط سنة ١٩٤٠ وسألني سؤالا في تعليل اختيار البشر لافعاله بما يسمى عند علماء الدين (جزء الاختيار) وكيف يمكن التسليم بان الكل يتبع الجزء فاجبته بما شفى صدره ثم سألني عن السبب في ابتعاد اصحاب الثقافة العصرية عن الايمان بالغيب ولكنه استرسل فيما يشبه الجواب فقال: أظن السبب يعود الى تعليل الأشياء بالطبيعة دون الخالق. فجاء كلامه قاطعاً في المناقشة ومغنيا عن تدخلي. فأنت ترى ان التعليل بالطبيعة العجماء عوضا عن الخالق الكلي العلم والقدرة هو تحول من الشيء الى نقيضه جريا مع الاعتياد والترداد فلست تجد بين الف مثقف تحول من الخالق الى الطبيعة مثقفا واحدا بنى تحوله على العلم باسرار الكون ونواميس حركته واسباب دوامه ليستخرج منه رؤية غير متحيزة ترتاح الى نشؤ الحي من الميت وانبعاث الحس مما لايحس وتباين الوعي من الغريزة التلقائية الى العقل المفكر. فاذا كان في أول مروره بدور الشك قد خامرته اسباب تميل به الى تعليل جديد للكون لافجوة فيه فقد استسلم فيما بعد الى الاعتراف للطبيعة بقوة الخلق والابداع على نحو من الكمال عز عليه ان يعترف ببعضه للخالق. ولست بصدد بذل الوعظ للملحد كي يرجع الى الأيمان ولكني ألقي الضوء على فعل الاعتياد والترديد والأجترار بالنفوس والأمثلة على ذلك تملأ الماضي والحاضر في كل مجال فما كان انقسام الناس على آلاف المعتقدات حتى يومنا هذا الا بفعل العادة والممارسة المستمرة فقد ترى عقائد مختلفة تتجاور في البلدة الواحدة لاكثر من الف سنة دون ان تتوحد رغم مشاركتها في السوق الواحدة ومتاجرتها بالبضاعة الواحدة وقل من اصحاب تلك العقائد من يتزوج من أهل الملة الأخرى أو يأكل من طبخهم أو يدخل معبدهم. فالقول المستمر بان المصالح المادية تقود الخطى وتصوغ الاخلاق وتقرر المصائر يؤدي بطبيعة مدلوله الحاسم الى ضمور الارادات ونكوصها عن التصدي لأقامة ماهو مائل من المقاييس والمسالك وماهو مختل بانحراف هذا

وتسلط ذلك فانه يسهل الاستسلام للأعوجاج والانحراف وفقدان العدل لسبق الاقتناع بسريان حكم المصالح والمطامع فيصبح تدخلك وتدخل غيرك لتعديل الخلل المتأتي من ذيوع الرشوة والكسب الحرام فضولا وخروجا عن الطور ووقوفاً بوجه ماء النهر الذي يسقي بساتين الواقع المعوج. واذا شهد المناضل رائده وقائده ينصب الفخاخ لزملائه المنافسين له على الزعامة وجد تصرفه سليما في نطاق التفسير المصلحي فينشط معه في نصب الفخاخ. لقد رأيت في أوائل عمري من آثار العادة والاستئناس ان شارب الخمر يسقط اعتباره لعدم ذيوع الخمر لكن المرتشي والمهرب وقاطع الطريق يعتبر شخصا معتاداً مألوفاً لايرفضون يده في زواج بنتهم حتى اذا استأنسوا بالخمر صعد شاربها الى مرتبة شرف المرتشي وقاطع الطريق في كل الشؤون. وما من عار مهما كان شأنه الا اصبح أمراً مألوفا على مر الزمن في مذاق التفسير المصلحي. ان الاستسلام لحكم (اختلاف المصالح) واعتباره هو القاعدة العامة لتحريك القوى الفاعلة في المجتمع وصل بالمناضلين في الجبهة الواحدة الى التفرق والتناحر لأنفه سبب من اسباب الخلاف على المصالح وقد يتشاجرون على صياغة الشعارات فان جماعات كثيرة تجابهها اخطار الفناء لاتشعر شعوراً ملزماً بوجوب الاتفاق لدرأ الموت وعلة ذلك ان الاتفاق ضد التناقض فكأنه ضد العقيدة ولأن التناقض اساس مقدس من أسس التطور نحو غاية الغايات في هذه الدنيا فصار الخلاف على اتفه الاشياء مبرراً للتفريط في اعظم الأهداف.

لست من القائلين بان الوعظ والنصيحة وما اشبه ذلك من الكلام اللطيف يكفي بحد ذاته لقلب الدنيا الى النعيم وجعل الناس يتهادون بالقشطة والحرير في تحية الصباح فهذا في ذاته كلام ساذج ينزل بالمشاكل الى ما دون الصعوبة في التفاهم على (كش ملك . .) . اني بعيد من المواقف الوعظية كبعدي عن تصورات أهل التناقض في ذهابهم الى سهولة حل المشاكل عن سبيل القضاء على عنصر الاستغلال ففي ذلك تبسيط مذهل لعلاقات اجتماعية نمت وتفرعت و

تشابكت وترسخت بطلاقة خلال آلاف السنين وعلى أنماط تعددت تبعداد الشعوب التي نمت معها علل صعبة العلاج لا علاقة لها بالتناقض المعزو الى الاستغلال وأن شيئا من تدقيق النظر في وشائج المجتمع وعلاقاته يكشف ان تشويه تلك العلاقات عن سبيل وصمها بالاستغلال على حين لم يكن متصوراً وجود مجتمع ليس فيه أخذ وعطاء وتعامل يتحرى الانتفاع . ان هذا التشويه فضلا عن انه يحصر العلة والدواء في أمر واحد قهراً وجبراً فهو في حد ذاته تسويغ لاقتراح حلول يجب ان تنتزه من قذارات التعامل فتكون حلولاً تقدست بالنزاهة المطلقة فترتفع لذلك عن مستوى النقد والرفض وطلب التبديل وتنقلب الى دين اشد عسراً على الناس من كلفة الاديان القديمة بطقوسها وشعائرها وهي على اي حال اكثر استهانة بالحرية والحياة من غالبية المذاهب التي لها اتجاه آخر لانها اقامت نفسها اصلا على وجوب اختزال الناس طبقة بعد طبقة وحصر الانشطة في صيغة واحدة مطهرة لا تسمح بالتعدد . وليثق القارئ باني لا أشمت في أحد ولا أريد تجريح شعور أحد بآرائي هذه ولن أجد انساناً مشدودا الى المساواة الجديرة بالبشر كانشدادي إليها على ان يكون الأمر في ذلك شورى لا مفروضا بالحراب وقطع الألسن . ولا مساواة أصلاً الاّ بالديمقراطية التي تحترم الآراء كلها وتسلم للأكثرية بتقنين الشرائع عل شرط ترك الخيار لمجموع الشعب من ان تبدل اكثرية بأكثرية واقول بعد هذا اني اشد الناس تلهفا على اليوم الذي تتكلل فيه مساعي غورباشوف بتنشيط دم راكد في عروق شعبه وادعو له من قرارات قلبي ووجداني وآمالي بدوام جهوده في التجديد والتنويع ولتقطع يد تحاول وضع العصى في العربة التي يريد تحريكها الى امام سواء كانت يداً أمريكية أو روسية مخرفة تعيش في الهراء . وكم كنت أتمنى قبل هذا ان يوفق خروشوف الى زحزحة التزمت العقائدي في وطنه عن معاقله ولكن المعاقل صرعته ويا للأسى . اقول هذا لامن مجرد الغرام بسواد عيون ناس لا يشعرون بوجودي بل اقوله رحمة بنفسي وبأولادي وبكل الذين أحبهم واريد خيرهم من بني قومي .

ووطني وعامة الناس من الأقوام جميعاً فانهم كلهم يتأثرون بنوع الفكر الذي يسود في الوطن الأول للأشتراكية .

ان الذي أقوله على بعد سحيق من منبر التبشير سواء كان في محاريب المعابد أو في رحاب الفلسفات وهو على قدر من وضوح الرؤية وقوة البداهة يسلكه في صنف دوران الأرض حول الشمس فكما ان القول بدوران الأرض لا يكلف من الجهد الا ما يكلفه تبديل القراءة من اليمين الى اليسار وانه كفيل بتفسير كل ظواهر الفضاء الخارجي دون حاجة الى تكلف افلاك ليس لها وجود كذلك شأن الكلام في الرجوع بنشوء التأريخ والاجتماع الى الانسان نفسه وليس الى اختلاف المصالح وما في حكمه وكلها نابع من البشر فهذا الكلام لا يضطرك الى التأويل في اشياء لا تفسرها المصلحة ولا المادة ولا التناقض وهو كلام تحكم به البديهة وتجتمع له البراهين في كل شأن من شؤون البشر من ادناها الى أبعدها ومن اكثرها اشراقا الى ارسخها في الشر والظلام فالتفسير البشري لا يفلت شيئاً على الاطلاق ويحتشد بعوامل التعليل بدأ بالتناقض المفيد والضار وانتهاء الى هرآآت رجل الغاب مروراً بالحضارة والفن والعلم وحيثيات الأجتماع واحداث التأريخ . ماوقع منها و مالم يقع فأنك اذا قضيت العمر كله لتجد شيئا واحداً من محتوى التأريخ والأجتماع والعمل الفردي وتخاريف النوم والمرض يتأبى على التفسير البشري لذهبت جهودك عبثا فكما ان الحديد لا يخيب في تفسير اية عملية كيمائية يكون طرفاً فيها كذلك البشر بمجموع قابلياته ونزوعاته وصفاته يكون بالبداهة مفسراً لاي حدث هو طرف فيه ولا اشكال بعد ذلك في ان يكون دخل التعامل من باب الاقتصاد أو من الدين أو من العبث أو الحيلة أو الجنس . . أو . . أو . . ويبقى الفرق بين البشر والحديد هو أن الحديد يتفاعل بلا ارادة وعلى قدم المساواة مع المواد الميتة الاخرى ولكن البشر يكون هو العامل الايجابي الاوحد في تعامله مع الاحياء والأموات في الطبيعة : البشر في دنياه المحدودة قديما والمتسعة حديثاً والقابلة للاتساع المطلق في المستقبل يقيم

معادلات اجتماعية هي من حيث اشتمالها على الارادة والاختيار ذات طرف واحد هو البشر اما الحديد والعنب والحوت والنجم الزاهر فهو كله (أمر واقع) او موضوع ليس له دور في معادلة الاجتماع الا كما يكون للسبورة او الورق دور في صياغة المعادلة الرياضية المكتوبة في وجهها . هذا القول الواضح يقتضي ويطلب بألحاح وضع البشر في التفسير التأريخي والاجتماعي موضع الاسباب المادية والمصلحية والتناقضية التي تكون بحد ذاتها جزءً من البشر فهي بعض من مظاهر فاعليته المنتصرة او المنكسرة فاذا فعلت هذا تكون قد فعلت في الانسانيات ما فعله كوبرنيكوس في الفلكيات من القول بدوران الأرض كمفسر لكل ما تراه من تعاقب الليل والنهار وتتابع الفصول وبقاء النجم القطبي ثابتاً ويكون من ضمن الدوران ان محور الأرض مائل عن خط دورانها حول الشمس بمقدار ٢٣ر٥ درجة وتبقى حسابات دقيقة لا يحسها الأنسان لها تفسيرها المقنع في هذا الدوران .

ان قابليات الانسان المميزة له عن الاحياء الأخرى تفسر لك عدم وجود عقيدة عند البهائم ، وقصورها عن الكذب وتنظيم المظاهرات ولعب الكرة ولا تستطيع التناقضات والمصالح أن تفعل شيئا في هذا الباب . وبالبشر تفسر اختلاف سلوك الشقيقين لا بالمصالح والمتناقضات . وبالبشر تفسر جنون العظمة ونشوء الاقتصاد وقيام البنك وانتظام السوق وقوانين العرض والطلب والأستيراد والتصدير والاحتكار فاذا تسنى لك العثور على المصلحة والتناقض في بعض شؤون البشر فانهما لم ينشا إلا بالبشر نفسه . قد تنشأ المصلحة بزيد ولا تنشأ ببكر وتنشأ في المسيحية ولا تنشأ في الهندوسية . ومن هنا كما هو من اية جهة كانت استلزمت البديهة ان يؤخذ البشر لا بعض شؤونه من شلغم وراديو و دولاب الهواء سببا للاحداث ومحركا للتأريخ والاجتماع والفرد نحو الأجمل أو الأقبح . فاذا حصل هذا واحتل البشر مركزه البديهي كان ذكر المصلحة والمضرة والتناقض والتآلف والنصر والهزيمة في صدد تفسير البشريات فردا وجماعة وتأريخاً كذكر الظلال

الممتدة من الشيء الواحد الذي وقع عليه الضوء من زوايا متعددة فلا يكون غريباً ان نجد اللص يستأنف سطوه بالبسملة والتوكل وان نجد الأشتراكي من اصحاب الملايين وان يبالغ المفلس في مدح هرون الرشيد وان يكون اشد العقول سخفا أنشط شيء في عمل الخير . فأذا صعدت الى السياسة الدولية وفي الاقتصاد العالمي وجدت الاشياء كلها تصعد وتنزل تبعاً للترمومتر البشري المتمثل في أمزجة وقناعات الناس المارسين لأمورها فقد يختلف الشركاء في ادارة البنك والوزراء في الدولة الواحدة وقد تتشابه الآراء من الساسة في دول متخالفة . اذا انعمت النظر رأيت ان اوحدية البشر في التأثير الموجّه والقائد لا تنحصر في صدد غير البشر بل قد يكون المتمرس الماهر هو العامل الايجابي الوحيد بين أناس لا مهارة لهم فالمشعوذ قادر على الغاء ارادة السذج في السياسة والغيب والمصالح اليومية . والقرية متكلة في غالب شؤونها على المدينة والمريض متكل على الطبيب فالبشر نفسه متفاوت في فاعليته وإرادته على درجات عديدة بين الحدود القصوى لكل صفة يمكن ان يتخلق بها .

وضع البشر في محله اللائق به يختصر نصف المسافة الى الحلول الصحيحة للمشاكل لانها ستكون ألصق بمصدر المشكلة فأنه شتان ما بين تفسير السلوك بالخبز وبين ان تدرس الانسان وتستشف رغبته ثم تلوح له بالخبز أو بالسيمفونية أو بالثقافة أو بالانتخابات والصحافة الحرة . في كل الأحوال يكون احتلال الأنسان لمكانه الحقيقي هو باب الرجاء لخلاصه من تعنت المستبد وشرة المتسيطر ونزوة المتنزي فان اول قيد يكبل ارادته هو تنصيب المنظرين والمتفلسفين والمسيطرين أنفسهم وكلاء عنه في تسمية ما يحب وما يكره كأنه طفل في دار الحضانة تسقيه الحاضنة شراب العقائد وتكسوه مقولات الفلسفة وتطعمه زقنبوت الافكار المجترة ..

فاذا كان ترديد الكلام في دور المادة والمصلحة والتناقض يمهد لها في عقول الناس مكانة هي أليق بالأنسان نفسه فما عسى يكون شأن الأنسان اذا تردد ذكره دواما بوصفه خالق المواد

المصنعة والظروف المتباينة والتناقضات الحادة والهينة والعقائد المتباعدة والمتجاورة وانه المسؤل الأول والاخير عن الصلاح والفساد في عالمه ؟ ان صنما لا روح فيه يقدس ويهاب بأدامة ذكره ونسبة الخطورة الى شأنه وان لطخة في الجبهة وخطاً على العذار ووشما في الذقن يعلو بالساحر الى مقام الصدارة في عشيرته فلماذا لا ينصرف الجهد الى تنصيب الانسان (ملكا) في ملكوته وصاحب الشأن في الذي يقع والذي لا يقع ضمن اجتماعياته ولماذا لا ينسب اليه دور السلع التي يصنعها و الحقل الذي يحرثه ؟ لم لا يكون هو مسؤولا في ملكوت الناس ؟ هل من كرامة لرأي من يبرر غطرسة القاهر بالقوة التي تجمعت لديه ؟ وماذا عن المقهورين بألوفهم وملايينهم المملينة ؟ هل هم حجارة ؟ هل هم عبدة الظرف والمصلحة وما اليها ؟ أليس في اجتماع القوة عند شخص واحد تفسير من خضوع الأكثرية له بغير المصلحة و التناقض ؟ اين مصلحتهم في الاذعان للظالم ؟ ولم لا ينتصر التناقض للأكثرية ضد الأقلية كما هو منتظر ؟ هل التأريخ الذي يصنعه الناس متأمر ضدهم ؟ ولم لا يكون السويسري مقهوراً ؟ ام يقال ان التطور حقق للسويسري كرامته و حريته ؟ وهل كان التطور السويسري ينمو كالعشب في الجبال والبحيرات ثم يتشرب الى نفوس الناس ؟ أفأن حاول ذو طموح وطمع ان يتجبر على السويسريين فاستكانوا بتعليل ذلك التجبر على أنه حكم الأحوال وداعي المصلحة . هل ينبعث (التطور) بمعزل عن السويسريين ليزيح المتجبر وينقذ المقهور ويغير الأحوال ؟ ما الأحوال والتقدم والتأخر الا أنت يا انسان ولقد قال شاعر مصري ، أظنه خليل مطران ، من حوالي ستين سنة :

ليس القرى ولا الدمن
بوطن أنت الوطن

فاذا كان من مصلحة الطامع المستغل ان يكبل ارادة الناس منتهزاً فرصة متاحة أفلا يكون من مصلحة الناس ان يمنعوه من تكبيلهم وحلب ضروعهم ؟ هل المصلحة وما يتبعها من

الأحوال والدواعي جنود مجندة بقوة غيبية في خدمة الغاصب ؟ أليس هناك كلام نقوله في تعليل ارادة الغاصب وتعليل اذعان المغصوب ؟ وهل يخسر الفيلسوف لسانه اذا وضع الانسان في معادلات القهر والاذعان والمصالح والأحوال في موضعه الحقيقي من المسؤولية ؟ ما اسخف قول الفيلسوف ان الاقطاعي جمع حوله القوة ووسع املاكه وراح يستبد بالناس ويستغلهم ولا يقول لي لماذا لم يجمع الناس القوة كما فعل الاقطاعي اللعين ؟ على مدى ستة الآف سنة يجمع الفرد القوة والملكية ولا يجمع الوف الأفراد شيئا يحمون به أنفسهم ويراد ان نفسر هذا الوضع المقلوب بالمصلحة والتناقض وما في حكمها من أنواع البلوى ونترك البشر مسكونا عنه مثل بيدق الشطرنج يحركه اللاعب برغبته دون دليل مقنع لتحول البشر الوفا وملايين الى بيادق . ان التوسل بالمصلحة والتناقض كان حريا ان يقول ان ارادة قلة من الناس جابهت ارادة الأكثرية بسبب من تعارض المصلحة وكان من طبائع الأشياء ان تكون قوة المعارضة من الف ارادة هي القاهرة لارادة عشرة أو عشرين من الطامعين فدفنتهم في قمامات التأريخ .

أنا اعلم كعلمك انت ان المجتمعات المتأخرة لاتنشط لدفع الظلم بسهولة ولكن اعلم ايضاً أن الذي يؤدي بهذا المتخلف الى قبول الظلم ليس حكم المصلحة المصورة في تقابل النقيضين والا لثار المظلوم لاقل الظلم لان الظلم سارق المصلحة . والفرق كبير جدا بين أن ينشط الانسان في طلب القوت وبين أن ينتظم الناس في مقاومة الظالم فأن طلب القوت شيء يفعله كل الأحياء وهو من البدائية والسطحية وعدم الدلالة بحيث أنه ليس ذا شأن في التطور التاريخي (وأشك أن يكون له دور يذكر في التطور البايولوجي) فلقد قلت أن الفلاح لم يتقدم بفضل الحرث والحصاد خلال خمسة الاف سنة ، وانتقاله من المحراث الى التراكتور كان من بركات المدينة . فاذا كان طلب القوت لايحقق تطوراً فمن باب أولى أو من باب القياس السوى الا يؤدي التعارض والتناقض في محاولات المقتاتين الى التطور فالنزاع حول الماشية وحصة الملكية مهارشة لاتضيف حرفاً واحداً الى

قاموس الحضارة شأنها شأن المهارشة بين القطط والضباع في قصورها عن تحقيق تغيير في حيوانيتها الى الأحسن . ونعلم بوضوح أن هذه المهارشات كانت حتى الأزمان المتأخرة تنتهي بانتصار القلة وهي مازالت في كثير من بلاد الله تفضي الى النهاية نفسها . التطور التأريخي له تفسير آخر في غير التناقض وتوفير القوت والدفء والمأوى والجنس وكلها أمور يلتقي فيها البشر والبهيمة فلو كانت سبباً للتطور وجب أن تنقلب البهائم كلها الى كائنات في مستوى البشر فالبديهية تحكم ان يكون علة التطور أمراً أو أموراً خاصة بالبشر دون سائر الأحياء و ليس بحث ذلك ضمن هموم هذه الكتابة .

وأعلم كعلمك أن القاهر والغاصب أنشط في عمله من فاعل الخير والسبب هو أن أولئك المنتفعين في الحرام يزدادون به ثروة وقوة وأن فاعل الخير يتبرع بشيٍ من حلاله فاذا بالغ فيه أفلس . أعلم هذا ولكن الذي يثقل على وجداني وارفض التسليم بحكمه هو رسوخ القناعة عند ملايين المتهورين بان قبولهم للظلم هو الموقف السليم والمحترم الذي لم يكن له بديل خلال آلاف السنين بمقتضى المصلحة اي أن تكون مصلحتهم في ضياع مصلحتهم وأن تكون كرامتهم في التنازل عن كرامتهم وان تكون سلامتهم في مد رقابهم لسكين الجلاد . ارفض ذلك في بداهة (١+١=٢) لان السر كامن في البشر نفسه فهو يفسر نفسه ظالماً يطلب ماعند الاخرين حين القدرة عليه ومظلوما يسكت عن اخراج ما في يده لعجزه بمفرده عن المقاومة وليست وقاحة الظالم في اعلان نيته الا صورة منعكسة بالمقلوب لاذعان المظلومين وللتناقض الصارخ بين مصلحة الظالم والمظلوم معطلا بشلل الارادة لدى عامة المظلومين فلا تصدق مايردده المحسنون من أصحاب النظريات أن هذا التناقض كان عبر الزمن مثيرا للأكثرية المسحوقة ضد الأقلية القاهرة فليس يعقل أن تفشل جهود مئة أسرة خلال خمسة الاف عام للخلاص من ظلم أسرة واحدة فالنسبة العددية بين المظلومين والظالمين لاتقل عن مئة الى واحد .

مبدأ الاستسلام للقوى بشلل الارادة من عامة الناس حي ينبض حتى يومنا هذا في اغلب بلاد العالم وزادت نكايته بالمسحوقين لزيادة اسباب القهر والغلبة عند القاهر وبطأ نمو الارادة في الجانب الآخر وانكشف من آثار ذلك بما نراه في حالات اضطراب الأمن من أن كل عصابة مغامرة تستطيع أن تركب كواهل أهل القرى والمدن وتسخرها لهواها الذي لايشبع . اما الذي يقال من سريان الكفاح وعدم الرضا بوجه الظالم عبر الزمان فاني اقول فيه قول اليقين الذي عاينته ولمسته فانه ماتحرك الفلاح . الا ماندر الندرة كلها . في وطني كردستان العراق حتى مابعد الحرب العالمية الثانية بتأثير نشوء الاحزاب المبنية على فكرة الكفاح الطبقي و تسرب افكارها الى الطبقات الفقيرة خلال الفترة الواقعة بين نهاية الحرب وبدايات الخمسينات . فاللولب الذي يدير الدائرة بين المظلوم والظالم هو ارادة المقاومة وليس ضياع المصلحة بحد ذاته فلقد ضاعت المصلحة على مدى العصور فما حركت للمقهور ساكناً فلما تنبهت ارادته على نحو من الأنحاء وبسبب من الاسباب بدأ بالتململ وعدم الرضوخ . ومهما نختلف في تحديد السبب هذا فلا مجال للاختلاف في أن المصلحة نامت قرونا قبل أن تتنبه على سنان الارادة التي تحفزت للنزال . إن الراديو فعل التنبيه والحث على الحركة خلال زمن قصير بما لم يفعله اختلاف المصلحة وما يعزى الى التناقض من داينميكية خلال ثلاثة الاف عام . ولابد من الاشارة الى أن دفاع الفلاح عن ارض يملكها ليس من الكفاح الطبقي في شيْ بل هو صورة من محاولة البقاء مشهودة عند القنفذ أيضا : لافرق بين مدافعة الفلاح للغاصب وبين مدافعته للذئب في حماية شاته فالغاصب ذئب يمشي على قدمين ، فالكفاح الطبقي حركة عامة من طبقة تجاه طبقة أخرى وكل جهد فردي منقطع عن العامة ليس دفاعاً عن طبقة ولا عن الوطن ولاحتى عن القرية والحارة .

شلل ارادة المقهور تجاه القاهر يتوضح بصورة أكمل ويبدو أكثر واقعية حين نرى أن المقهور يتطوع من ذات نفسه ببذل المال وتكلف الخدمة للمشعوذ فهو أشد أفلاساً مع المشعوذ منه مع

الأقطاعي فضلا عن أنه غير مضطر على التبرع للحية طالت وسبحة من مئة حبة وحبة ..

الكلام في ماضي الاحوال التي تعاقبت على الناس منذ الوف السنين لاينتهي الى غاية والنبش عن الاسباب لأحداثها برد كل حادث الى سببه أمر يطول فيه العناء وينفرج فيه زاوية الخلاف على التفسير فلا أتوسع فيه فأختصره لأعيد القول بأن البشر نفسه سبب تلك الأحداث ولاتدخل المصلحة سببا في التعليل الا بمقدار اتصالها بارادة البشر ووعيه واختياره وليس شأنها الا كشأن الغضب للكرامة واللين للمودة ورعاية الوفاء والحرص على العقيدة وميا اليها وما واحد من ذلك ضمن مفهوم المصلحة . ويمكن تصوير دور المصلحة في اطار الصيغة التالية الواضحة : أن البشر يفعل ما هو بنظره مصلحة . وقد تكون المصلحة مادية أو اعتبارية أو موهومة فهي صيغة تتسع لكل الاحتمالات بدأ بالاستسلام ومروراً بالمساومة وانتهاء الى المحاربة . والمسافة بين هذه المراحل تحتشد بألف الف صورة من المواقف فالمصلحة ملحوظة في هذه الصيغة على حقيقة ارتباطها بموقف الانسان في احواله المتباينة كارتباط اي حافز أو مانع آخر بموقفه .

والناس المتشابهون في احوالهم قد يتشابهون في تصرفاتهم وقد يختلفون قليلا أو كثيرا بسبب اختلاف طبائعهم أو رغباتهم أو معتقداتهم فلا حتمية في معادلات البشر بل أنه لايوجد مخلوق على الأطلاق يمكن أن يتفاوت احاده في التصرف وفي المزايا والطبائع كأفراد البشر فالتركيبة الأنسانية بقياسها الى التركيبة الحيوانية ذات أبعاد وزوايا ومضامين مفرطة في التعداد والماهية تلد كل الاحتمالات المتصورة بين بدائية الأنسان قبل خمسين الف سنة وبين حضارته السابحة بين النجوم في مشارف القرن القادم . وانس الكلام الحلو المخدر الذي يردده اصحاب القلم بحسن نية أو بغيره في أن الأنسان هو الانسان في كل مكان فهو لايتشابه الاّ في الاشياء التي يتشابه فيها مع سائر الاحياء ولو انعمت النظر وجدت أن الحيوانات التي استأنست بالبشر قد تعددت ألوانها وحجومها على حين بقي الذئب والنمر وابن آوى والبطريق على حاله القديمة ومن غريب المفارقة

أن يطلق القول في تشابه الناس ثم يطول العناء في شرح نزاعاتهم وحروبهم وأخذ بعضهم بخناق بعض .

اعود فأقول أن الكلام في ماضي زمان البشر يطول ويتشعب وحرى ألاّ نصل منه الى الحاضر الابعد جهد عظيم . ورغم أن فهم الماضي على حقيقته من شأنه أن يفضي بنا الى الحاضر بعين مفتوحة على واقعه وذهن مستوعب لمشاكله فانه من الصعب استيفاؤه ضمن كلام مخصص لغيره فالأولى أن نقصره على بشر هذه الايام أو على (الاوضاع المادية) لاحوال هذه الأيام على حد تعبير الحلول المادية التي تفسر الأنسان بالمصلحة ودواعي الأحوال منقطعة عن البشر نفسه : قلت (منقطعة عن البشر) تمسكاً مني بجوهر ماتعنيه الفلسفات المادية بلاتأويل فانت اذا رددت تصرف البشر الى المصلحة والاحوال تكون قد نسيت أن المصالح وغيرها رشح بشري فالأحوال الأجتماعية من سياسية وثقافية وأقتصادية ووجدانية وشيطانية وضروب المتع والفسح وأفانين التأزم والتوتر كلها (بشر) ولايمكن ردها الى غيره . لا اعترض على القول الذي يقول أن البُشر يكون اسير احوال هو صانعها كأن يتوهم أو هاماً فينحت لها صنما يعبده أو يأتي اعداؤه فيكبلونه أو يضللونه أو يدربونه .. ارجع فأقول ان الحاضر لم يصبح ماضيا حتى يكون قد أفلت من أيدينا فمن المستطاع التعامل معه بلا خداع نظر أو دوار رأس أو ميل مع الهوى فليس عبثاً أن نتناول الحاضر على حقيقته ونسمي اشياءه من محبوبة ومكروهة بأسمائها ونقف منها على وفق المطلوب لما يتضح من حقائق العلل . واعجب العجب أن يستطيع علماء الذرة والفلك الوصول الى اعماق الفضاء ولايستطيع فلاسفة البشريات الوصول الى حقيقة أن الفلاح لم يستطع التقدم شيئا يذكر خلال الاف السنين الا ما كان منه قادما اليه من المدينة و انه لم يلد من الافكار الا اشدها ايغالا في الهراء وان الحضارة البرجوازية لاجذر لها في الريف فهي ليست مولودة الزراعة والاقطاع ، وأن شؤون البشر تتقدم بتقدم البشر نفسه لابتقدم مصنوعاته فهي بعض شؤونه

فلكي يوجد قلم يجب أن يوجد قبله انسان يريد أن يكتب . عجيب أن يفسر سلوك البشر بالاقتصاد أو العقيدة أو المرحلة التأريخية أو الظروف الأجتماعية والمادية ولاتفسر هذه الاشياء بالبشر نفسه . لايمكن شراء الذمة بالرشوة مالم يكن البشر خلق ظرفا تروج فيه الرشوة ويكون قد خلق قبلها المصلحة التي تبذل فيها الرشوة وخلق النقود المعبرة عن القيمة الشارية وخلق القانون الذي ألجأ الراشي والمرتشي الى التحايل عليه . أن ربط ارادة البشر بمبتكراته الجيدة والرديئة توصلا الى اكتشاف دساتير تعلل سلوكه هو ابتعاد واسع عميق عن الحق اذا جاء بلا اصطناع وهو تضليل مدان اذا جاء عن قصد لهدف معلوم . حقا يحار الفهم في تردد الفلاسفة من الاقرار بان تصرف الانسان نابع من مجموع مزاياه التي تفرقه عن البهائم ولكن لا يترددون من الاقرار بان تصرف البهائم نابع من غرائزها . غريب حقا ان يعزو الفيلسوف ضرب البشر للطبل والمزمار عند الخسوف الى تأثير الظاهرة نفسها لا الى وجود عقل بشري يعلل الظاهرة تعليلا خاطئاً فأنه من قبيل البديهية أن البهائم لاتطبل أو تزمر لفقدانها العقل الذي يخطئ ويصيب ، أم ترى أن الظاهرة تشكو شللا نصفيا يعطلها عن التأثير في العجماوات ؟ أن نظرة واحدة من عين نصف مفتوحة ووعي شبه يقظان كاف لادراك مايلي : كل مافي الوجود من مرئي وغير مرئي ، لا يحرك مخلوقا الى الابداع والاستثمار والعبادة والتقديس أو اللعن والاستهزاء مالم يكن له عقل ارقى من الغريزة يربط الاشياء ربطا عقليا فيستخرج نسبها ويبني منها المعادلات ويستنتج النتائج إما صوابا وإما خطأ والبشر وحده دون سائر الاحياء يملك عقلاً يخطئ به ويصيب ويهتدي ويضل ولا وجه للقول بغير هذا لانه خلاف البديهة وظاهر الحال . وتبقى للمسألة حيثية اخرى اخطر من مجرد الاقرار بالحقيقة لانها حقيقة :

لقد مرت الاشارة الى أن تعويد الفكر بعقيدة ما يجعله مطواعاً لها ماشياً في اثرها وهذا أمر ملموس لايحتاج الى مناقشة فهو وحده يفسر اقتتال الاخوة وخيانة الامانة والتضحية بالنفس

وكل الاشياء المعقولة واللامعقولة في عالم الاجتماع حيث يختلط العقل بالغريزة فيولد الف الف صورة متناسقة ومتنافرة من تصرف الفرد والمجموع . أن تلقين الانسان منذ صغره تعاليم عبادة الحجر وتعظيم روث البقر يسلكه في منحى مخالف لكل اقيسة العقل والمنطق ، كذلك يكون تلقينه اولوية دور المادة والمصلحة في صياغة تصرف الانسان مؤديا به الى استصغار شأن نفسه وتنصيب المادة مكانه قائماً بتحريك الدنيا من حوله . ولما كان الانسان محاطا في عصره بالمصنوعات والسلع البشرية التي يحتاجها في معاشه ومماته ويدأب في الحصول عليها على مدار السنة يكون إسناد الأولوية لتلك المواد في خارطة الاجتماع اسنادا لشيء يملأ على الانسان محيطه ويشغل جل وقته ويتوقف عليه رفاهه ومصيره وبذلك يتعاظم حجم اعتباره وقوة تأثيره في قناعته فيسهل انقياده لمقتضى هذه القناعة من التخلي عن قيمة الارادة الذاتية والنزوع الفردي وما أسهل أن يكون الانبهار بعظمة الطائرة والتلفزيون مانعاً من الانبهار بقوة الابداع التي اتصف بها مخترع الالتين . لقد كان الانسان قبل خمسين الف سنة محاطاً في تسعة وتسعين بالمئة من بيئته بالموجود الطبيعي الذي لم تكن له ارادة في وجوده فكانت استكانته لقوى الطبيعة واعتباره لها مصدر السلطان بمظاهرها الرائعة أمراً مفهوماً لافكاك منه فلا غرابة بعد ذلك في لجوئه الى الطواطم والطلاسم والقرابين جلباً لرضاها ودفعاً لسخطها . وانقلبت الاية على مر الزمن حتى صارت المصنوعات البشرية تسعة وتسعين بالمائة من محيط انسان العصر . وصاحب ذلك نشوء مدارس الفكر والعقيدة التي تعالج تفسير الكون وصلة الانسان به فأصبحت الفلسفات التي تركن الى المادة في التفسير زيادة قوة لسلطان المادة والمحيط على ارادة الانسان وزيادة ضعف في شأن الانسان نفسه في معادلات المعيشة والتطوير . وليس بعيدا من الحقيقة أن مقام المصلحة المادية في عقل الانسان الذي يدرس المناهج العلمانية الى جانب تضخيم دور المادة أصبح شبيها بدور الطوطم الاسطوري في جو مضبب من اختلاط النقيضين اي العلمانية والمادية ذلك أن

العلمانية نور انساني محض والمادية تأليه مادي محض فكان من نتيجة اختلاطهما أن تكونت مفاهيم متباينة للشخص الواحد في تعليل الشيء الواحد فأصبح العقلاني المادي يجمع بين القول بأن الانسان خالق مصيره وبين القول بأن تغير وسائل الانتاج يؤدي الى تغير علاقات الانتاج فيحصل منها كذا وكذا في التغير والتطور فهو قد يبدأ بتقديس الانسان وينتهي الى الاستسلام لوسيلة الانتاج بعد أن يكون قد سقط من اعتباره كون وسيلة الأنتاج صنعة بشرية ماظهرت الابعد تطور البشر خلال احقاب الزمان وانها لكونها تلفيقاً وتجميعاً وتنسيقاً من رشح ذهنه لم تحظ من احترامه بجزء من الف جزء من احترامه لقوس القزح أينما ومتى ما كان في اطواره الفكرية الساذجة . أن حلول المادة والمصلحة ودساتيرها المعتبرة محركة للتاريخ . أن حلولها محل الانسان في اقامة المجتمع وصياغة مصيره يمهد السبيل للطامعين في السلطة والاستئثار بالقوة والهيمنة كي يختالوا على الناس بالمواد و المصالح والتناقضات ولسان حالهم يقول : ها اننا وفرنا لكم المأكل والملبس وماتيسر من المواصلات والفسح وسائر ضرورات المعيشة من بركات النظرية و بفضل حسن تطبيقنا لها عن سبيل فهمنا لقوانين التطور فاعملوا أكثر وأكثر وأشكروا النظام الذي يطعمكم من جوع .. الى نهاية هذا الكلام الفارغ والمدان في آن واحد فالمأكل والمشرب لم يخرج من مخازن آبائهم من باب الصدقات حتى تستوجب الشكران والأمتنان وانما هو صنع يد هؤلاء الذين تحشى ادمغتهم بالكلام المضلل الذي يسرق فاعلية المتمسكين ويمنحها للمادة والمصلحة الخرساء غسلاً للأذهان وايهانا للثقة بالذات وترسيخاً لمقام انصاف الآلهة على عرش الزهو والانتقاش وبذلك تنقلب الاية في تطبيق مبدأ تقسيم المكافأة بحسب العمل لان اصحاب النظريات والتخريجات قوم مستريحون يبذلون الكلام ويتفضلون بالتوجيه في انتاج تعود ملكيته للدولة فهم لايتحملون أية خسارة في خطأ أو هراء يلتبس بتوجيهاتهم بل يلقون تبعاته على الأشخاص الكادحين في الانتاج فاذا نعموا بالحصانة والراحة تلقوا مكافات اكبر وتمتعوا

بالسلطة ومزاياها على حين يبقى الكادح دائما في التعب والمسؤولية و انعدام الاختيار ونقصان الأجر ثم هو لايملك حق الاضراب والاعتراض على خلاف ماهو جار في العالم الرأسمالي الموصوف في نظريات التناقض بالاستغلالية وقهر العمال فانه بمثل ما آل تقديم دور وسيلة الانتاج على دور البشر الى نزول مقامه وفقدانه حق الأختيار كذلك صار افتراض ملكية المجموع لوسائل الانتاج ذريعة لشطب حق الاضراب من قائمة الحقوق .

ومن غريب الكلام الذي تسمعه يتردد على نطاق العالم من أن الحزب الحاكم في البلد الفلاني يوفر العيش لكذا مئة مليون من البشر وكأن هؤلاء الملايين تنابلة السلطان يشبعون من سماط مبسوط في مضيف الحزب . أن دولة كالصين فيها الف ومئة مليون نسمة تملك من الارض والماءوالمعادن ومصادر الثروة الاخرى مقداراً تفوق نسبته الى ماتملكه منه تايوان (فرموزا) ولكن تايوان تتقدم اليوم على الصين في المستوى الأقتصادي للافراد وللمجموع على حد سواء . ولو جزأت الصين الى مئة دولة لازدادت متاعبها لأن التكامل الاقتصادي المتولد من الصين الواسعة يتبخر بتجزئتها وقطع الترابط بين أشلائها . صحيح أن المجتمعات الكبيرة تطلب جهدا اكثر في تنظيم شؤونها ولكن صحيح أيضا أن سكانها يشتغلون ويوفرون قوتهم بكدهم وأن وسعة مجتمعهم توفر امكانات اكبر للتقدم اذا استغلت مواردها بمهارة على مقتضى طبائع البشر الأجتماعي لا النظريات المقدسة . انك اذا قتلت في الفرد فرديته بتسخيره لسلطان وسيلة الأنتاج وقمعت ابداعه بأذابته في بحر من البشر الذين لاخيار لهم تكون قد حققت المعادلة الصعبة المؤدية الى قص جناح الطائر وبتر قدم الماشي وترتفع من حولك تكبيرات المبشرين بالقضاء على الاستغلال ..

على اي حال ليس من مصلحة ولا انصاف ولامعدلة ولاحقيقة في تأخير دور البشر عن دور ماسواه من الموجودات في التطور ، وكل تبرير يتفتق عنه ذهن العباقرة لتكبيل ارادة الناس

بأخضاعها لسيادة وسيلة الانتاج هو تكريس لذل الأكثرية وغطرسة الأقلية . اذا قبضت على مقولة (بتطور وسائل الانتاج تتطور علاقات الانتاج) وقلبتها الى الصيغة التالية (بتطور الانسان تتطور وسائله واحواله وانظمته ..) تكون قلبت الهرم المقلوب الى وضعه المألوف ووضعت الحصان امام العربة واعدت الحق الى صاحبه واخرست وعاظ السلاطين الذين يصرون على استرقاق البشر لحساب الآلة . أن القول بمادية المصنوعات ومنحها قوة التأثير في صياغة البشر من دون النظر الى علاقة الصانع والمصنوع بينهما ودون الالتفات الى ارادة البشر واختياره في الاقبال عليها ورفضها هو من قبيل القول بدوران الشمس حول الارض جرياً مع ظاهر حاليهما ومن نتائجه أن تكون الأرض مركز الكون وأن بعض النجوم الواقعة على بعد عشرين مليار سنة ضوئية من الأرض تدور بسرعة تفوق سرعة الضوء بمليارات المرات .. ونتائج اخرى لانهاية لها من الفيزياء والفلك وحقائق الوجود ، كلها باطلة مبطلة . ولن يكون القول بمادية المصنوعات وتابعية البشر لها اقل تدميراً وتحويرا في شخصية البشري ودوره التأريخي من القول بدوران الفلك حول الأرض في قلب حقائق الكون واخطر نتائج ذلك على البشر هي خسارته لاختياره وسهولة خضوعه لما يلقى إليه من المنظرين المتحكمين في التصرف بالمنتوجات . لقد كان في امكان الساحر والمشعوذ ومدعى الاتصال بالغيب أن يسحب قطعان الناس وراءه بزعمه انه يملك التصرف في المصائر ولقد تيسر له ذلك بمصادرة وعي الناس دون حاجة الى وسائل القهر فيأتي متفلسف اليوم من اصحاب السلطة و يصادر ارادة الجماهير حين يعزو التقدم والرفاه والتطور الى الآلة والسلعة ويترجم سيطرته على المصنوعات والحاجات الى شرعية تحكمه ووجوب الرضوخ لرأيه فيستعمل في التوجيه والتصريف فن الكلام مرة وفن الكرباج مرة على حسب الاقتضاء . ولايخطر على الذهن مايمكن أن يُعالج به نقمة الكرباج وذل الخضوع الا إنزال وسيلة الانتاج من العرش الملفق لها وتنصيب (الانسان) مكانها ومكان بقية العوامل المحتلة لمقام الانسان في تفسير التأريخ من

طبقيات وتناقضات واحوال ومقتضيات قطعوا صلتها فلسفيا بارادة الأنسان ودرجة وعيه . أن التوسل بالمظاهرة والأضراب لايكون ذا أثر حاسم اذا لم يحصل في اطار نظام يحترم ارادة الناس والا كانت المظاهرة غير شرعية من جهة القائمين بها ويكون قمعها شرعيا من جهة المتفلسف الذي اناب نفسه مناب كل الناس في ادارة الأمور بسيطرته على لقمة العيش ووسيلة الانتاج القابضتين على زمام التاريخ في نصوص النظرية .

ان نزع الفاعلية من صانع السلعة ونسبتها الى السلعة نفسها هو من قبيل تحييد دور الطبيب في العملية الجراحية ورد الفضل في شفاء المريض الى غرفة العمليات ونور الكهرباء والمبضع والمورفين وقصارى الفرق بين الحالتين ان الفيلسوف المسيطر عاجز عن التلاعب باجهزة الطب لجهله بها ولكنه يوزع القماش والعنب على هواه ويحتال في الهيمنة على الطبيب بتحجيم حريته وتحديد راتبه وتعيين مسكنه وما الى ذلك ويبقى مهيمنا بالطريقة نفسها على أهل المهارات من أداب وفنون ورياضات وكشوف . وليس غريبا أن ينقلب تنصيب الالات حكاماً على البشر الى زيادة اجرة العامل غير الماهر بسبب قربه من الالة عن اجرة الطبيب والمهندس واهل الفكر عموما ممن لايبذلون جهدا عضليا وأنما يكون شغلهم الأول هو استعمال الفكر والذكاء وقوة الخلق والابداع . والواقع هو أن رفع مقام الألة فوق مقام البشر عن سبيل رد عملية التطور اليها قد ضمن الاحترام الزائد للجهد العضلي غير الماهر فالآلة نفسها لاتقوم ، في الأكثر ، الا بجهد مماثل للجهد العضلي الخالي من الفكر فاذا كان الجهد الغبي محترما في الالة فلم لايكون محترما في البشر واذا كان مبدع الالة يأتي في الرتبة بعد الالة فلم لاتكون رتبته ادنى من رتبة صاحب الجهد العضلي . لعمري أن تفضيل العامل غير الماهر على المبدعين هو أكثر شيء اتساماً بالعقلانية والمنطق في ربط التأريخ و الاجتماع بوسائل الانتاج دون الانسان

ليس من همي الحاضر ولا في امكاني المتيسر التفرغ للاتيان ببديل للتفسير المادي التناقضي

المصلحي في نظرية متكاملة صالحة أو قابلة للتنفيذ بأسبابها من حيث المنشأ وبحوافزها الدافعة الى التقدم ومن حيث ايماؤها الى مستقبل متصور على سبيل الحتم أو الترجيح أو الاحتمال فالذي اقوله هنا لايتعدى الدعوة الى نبذ التبشير بالعنف والنقض والاستئصال سبيلا الى مستقبل مشرق فاذا قلت لشخص يهم بقتل اخيه : لاتقتل اخاك فليس من حقه ان يحرجني بطلب بديل مقنع عن قتل أخيه فقد كفاه أن ينبذ العقيدة الداعية الى قتل الأخ كي يرمي السكين وينشغل بحركة السير في الشارع أو تعداد النجوم أو رتق ثوبه . أن الدنيا من حولنا تحوي امثلة كثيرة لبلدان في قمة الحضارة كان اقوى وسائلها الى النهوض والكفاية والأمان هو خلاصها من استعباد النظريات المقدسة لها ونبذ صيحات التهديم والتصفية والتحريق فابتعت سبلاً للتصرف هي ما تحكم به الفطرة السليمة والنية الخيرة الناجية من أسر العزيزة العمياء . ومن عجائب مايجابهني به جل المثقفين المنساقين مع منطق التنافس العنيف والاحتكام الى قوة العضل قولهم أن البلدان المتحضرة قد مرت مثل غيرها بادوار العنف والتقتيل فهي مادخلت جنة الامان بقفزة واحدة بريئة من حمرة الدم وغبرة الصراع وبهذا تكون هرآآت عالمنا العاشر مفسرة ومبررة في نظر اولئك المثقفين ونازلة منازل البداهة الغنية عن المناقشة :

لا أبالغ اذا قلت اني اجد في مثل هذا التبرير لدوام عالمنا على التذابح والتناطح عيارا انموذجيا في الغباء والافن وتبلد الوعي فانه مما يرفضه حتى منطق المخابيل أن نترك العلاج بالأعشاب الى الاستعانة بالأدوية والأجهزة السحرية وكلها مبتكرات المتحضرين ثم نصر على المراوحة دهوراً في نزاعات القرون الوسطى للتدليل على أن التطور لايكون بالطفرة . اننا نقفو اثرهم في استعمال مصنوعاتهم الباهرة خلال شهر أو أقل فكيف نستطيع أن نتبالد حتى ندب كالنمل في طلب سلوكهم الحضاري ؟ الا ان النكبة في مضغ مثل هذا الخبال الأجوف افدح من أن أزيحها عن صدري بمغالطة النفس على أنها حكم الضرورة فكيف اقتنع بان الضرورة تدفعنا

الى قبول الراديو ورفض الرحمة والعدالة والامان في تجربة تلك الأمم المتحضرة . إن الضرورة لم تنبع من سهولة الراديو وصعوبة الامان ولكنها ضراوة الذئب الكامن في أعماقنا تشحذها الفلسفات الرافضة للدين والرحمة . والذي يضاعف همي في هذه البلوى الكارثة هو أن طلائع المثقفين والمناضلين وليس حشود الجهلة يرددون خيالات الاعذار المجوفة فالجماهير لاتعلم اصلا كيف ومتى تنهض الناهضون و قعد القاعدون ليتعللوا ويتمحلوا بالاعذار . ثم أن الهم يتضاعف مرات كثيرة حين اجد يقينا أن اقتباس الطائرة عمل مجهد يتطلب أشتاتاً من المرافق و المران والفنون والعلوم ولكن امتناع الأخوان والزملاء والمواطنين عن التذابح لايكلف شيئا على الاطلاق ويكفي فيه كف اليد عن القتل أو الانشغال بالثرثرة أو الدخول في نوم أهل الكهف وتكون الاماني الوطنية والاهداف المصيرية بخير أو في عند نومهم منها وهم ايقاظ يتصارعون . لئن كان دخول الاخوان وشركاء المصير في صراع مميت لايحصل الا بالفلسفات المثيرة المعللة المسببة المنطقة الملبلبة فان التصدي لدعوة المتصارعين الى الرحمة بأنفسهم وأخوانهم وأوطانهم لايحتاج غير وسيلة واحدة يكون من شأنها أن تمسح تلك الفلسفات من أذهانهم ولتكن الوسيلة ماتكون من العقلانية أو السحرانية أو الشعوذانية أو الوهمانية . فاذا اعترض أحد المتعللين على ذلك بالخسارة الناجمة من مسح الفلسفات فقد كفى عوضا عنها بقاء الناس والأوطان على خارطة الوجود بأمان وحسبنا عزاء أن نهدي الفواتح الى ارواح الفلسفات الميتة لا الأحياء الميتين . وننساق الى نهاية ما يتداعى من هذا الكلام فنقول انه اذا كان لابد من بديل للنظريات المغرية بالاقتتال بدعوى أن الناس لاتستطيع العيش في فراغ فكري سياسي ولاسيما الذين شبوا على الطقوس الايديولوجية فالجواب في حدود مايهم امثالنا من الشعوب هو أن مراحل التحرير تنطوع من ذات نفسها بتوفير نظرية اقوى وأظهر واطهر من كل ماعداها من النظريات والعقائد الا وهي نظرية التحرير وعقيدة التحرير . فلكي يتحرر الناس من غلبة الأجنبي يكفيهم دين

واحد وفكر واحد وتصميم واحد هو (ارادة الخلاص) فقط بلا تلوين أو تزويق . واذا كانت ارادة الخلاص تتضمن بالضرورة (وسيلة الخلاص) فهي تستبعد بالضرورة كل خلاف في الرأي وكل تعدد في القيادة وكل تأويل وتعليل يحرف المسيرة الى غير الهدف الذي تفرضه ارادة الحياة ذلك لانها أم (إرادة الخلاص) . أما (الوسيلة) في الخلاص فان اقوى وامضى واكفل تجسيد لها هو في (وحدة الرأي) أولاً وثانياً وعاشراً ثم يأتي دور التبشير بالقلم وباللسان وبالرصاص فلا لسان ولا قلم ولا رصاص يكون له شرف (حماية الحياة) و (ارادة الخلاص) اذا انطلق من محاور الاختلاف في الرأي . وعلى قدر البساطة والوضوح في بداهة هذا الذي اقوله تكون البساطة والوضوح والبداهة في فساد الفلسفات والافكار التي تقسم الناس شيعا واحزابا في مراحل التحرير . على انها ستبقى فاسدة بعد التحرير اذا بقيت على حالها في الدعوة الى الحدة والشدة والعنف سبيلا الى حل المشاكل . أن احد مصاديق ماقلته من تأثير المعايشة مع المفاهيم وترديدها على مرالايام هو ما انتقده هنا وانتقدته مرارا من سهولة انبعاث التذابح على اي مقدار من الخلاف في وجهات النظر فان كل جهة تجتر وتجتر موضع الخلاف مع التحيز الكلي لوجهة نظرها والادانة الكلية لغيرها . انك تستطيع أن تتصور من احوال عالمنا المتخلف العجيب الغريب فئتين سياسيتين بينهما خلاف في التسمية فقط كأن يكون اسم احداهما (الاشتراكي الديمقراطي) واسم الاخرى (الديمقراطي الاشتراكي) وهما تفران من خطر واحد فاذا جمعتهما الصدفة حال الفرار ساقتهما البديهة السياسية !! الى تبديل وجهة السلاح عن الخصم نحو تصفية الخلاف على التسمية ذلك أن الثوري لايفلت الفرص !! التاريخية في القضاء على التناقض !! رب قائل يقول ماجدوى كراهية الخلاف واقتتال الأخوة وماجدوى التدليل على بطلان النظريات الداعية الى حل المشاكل عن طريق نقض النقض على حين امتلاء الدنيا قديماً وحديثاً بالخلافات والنزاعات والصراعات على المصالح أو الاوهام وكيف يمكن اقتناع المشتبكين في نزال الموت

بصواب العلاج المتمثل في مواعظ ناصح مثلي يقول لهم : كفوا عن التناحر فأنتم مخطئون ! وهل ينتظر عاقل أن ينسى المنخرطون في معارك التصفية كل الأسباب والمسوغات التي دفعتهم الى قبول اشد المهالك ليصيخوا الى عابر سبيل يكتب تعاويذه في صومعته الثناء فسح الراحة متفضلا عليهم بالحكمة والموعظة الحسنة التي رفضوها أول ما سلكوا سبيل المكافحة والمناضلة والمكافخة والمفاسخة ؟ عالم الفلسفات والمصالح المتصارعة غني عن الكلام الشعري المنمنم بالنوايا الطيبة والاحاسيس النبيلة فقد سبق ان افلست فيه مشاعر الابوة والأمومة والبنوة والأخوة ووشائج القربى والصداقة وكل حلاوات الاجتماع حول مائدة الوئام المثقلة بأشهى المآكل والمشارب . مثل هذا الكلام الذي اعترض به على نفس يدلك على انني غير غافل عما هو جار في الدنيا وعن عسر الطلب المتكلّف في استطراداتي بل تعذر النفوذ الى قلاع المجالدات وسوح المعارك بامتشاق ناي الراعي الذي اطلق منه جبران خليل جبران دغدغاته لاعصاب الوسنانين بنشيده الحالم في دنيا الخيال

«أعطني الناي وغنّ فالغنا سر الحياة»

فلا الغناء سر الحياة ولا الناي يقود نافخة الى حبة توت واحدة أو يذود برغوثاً من جلدة المضطجع على الثري ولن يبلغ بأهاته وتأوهاته عتبة باب الحراس على قلاع التناقضات والمصارعات .. والواقع هو اني في كل ماأكتب من نقد لأيديولوجيات العنف والحدية وفلسفات الصراع الجذري اتشفع ببطاقة دعوة واحدة تخولني حق الحضور بالرأي في ولائم اصحاب العضل المفتول المدجج بالسلاح والمشدود بتوتر التطرف ذلك اني اقوم الحدة والشدة وقطع الرحم ورفض الصلح بالمنطق الذي يستند اليه كل هذه المهالك عن سبيل اكتشاف خطئه وبيان خلله وضرره وأنقل خطى قلمي على ضوء النتائج المتحققة والمنتظرة في نهايات أشواط العنف وما

تحقق من تطور في الدنيا المتحضرة التي لاعنف فيها ولامسلمات تفضي الى شارع واحد بلا فروع فما لجأت في كل ماكتبت وأكتب الى نظرية تحت الطلب بمقدماتها وحججها ونتائجها تعارض الحلول الجذرية والاتجاهات المادية والتوسل بمبدأ التناقض ولو فعلت ذلك لما زدت أن اكرر عقيدة تكون قد رفضتها المدرسة المادية كرفض اللامادية للمادية سواء بسواء . وواضح اني في ترديدي لرأي غيري لأبلغ مبلغ صاحبه من حسن التعبير والصياغة ومن الاحاطة به والاشتمال عليه . وقد وردت (المدرسة المادية) هنا في كلامي لكون أسانيدها وحججها واساليبها غالبة على دنيا الفوران والثوران والحل الجذري الأستئصالي فسامحت نفسي في التعبير بالمادية ليشمل مساحة أوسع منها في دنيا النزال والنضال . والواقع هو أني أدين من ركني المتواضع المفتقد لأدنى قدر من قوة التأثير والتغيير كل انواع العنف والتطرف والحدية والنقض والتفسيخ وأي مقدار كان من ارغام الناس ضد قناعاتهم فكل ماجاوز حد الاقناع الطوعي في الترويج لمذهب من المذاهب هو مرفوض عندي رفضا قاطعا فأنا حدى وجذري ونهائي وممتنع من اعادة النظر في مسألة (الاختيار) ذلك أن التسليم بالقليل من الارغام يجر الى التسليم بالكثير منه ويوفر للطامعين في الدنيا مدخلا الى باب التأويل فاتهم بسبب سكوت الناس عن حقوقهم يستعملون اعتى وسائل القهر بلا تأويل .

فكيف بهم اذا وجدوا مايتعللون به . كفى بالقوانين التى تقرها الأكثرية الحرة أن تكون فيصلا بين المباح والمحظور وكفاها نزاهة أن تكون عرضة للتغيير تبعا لرأي الأكثرية الحرة وكفانا برهانا على صحة ذلك استتباب الأمن وشيوع العدل واطراد التقدم في كل بلد أخذ بحرية الرأي وشجب الأكراه على اى حال . أن جوابي على من يقلل من شأن مثل هذا الكلام الذي ينثال من قلم انسان مثلي آثر القلم على النصال والحبال هو أنه بصرف النظر عن اية وجاهة وقيمة وخطورة للعلل التي اسوقها وسقتها في دعم وجهة نظري فاني أحتكم في همي وانشغالي الى اي قدر من الانصاف

يمكن أن يكون قد بقي في قرارات الضمائر حين أوكد اني ماجرأت أن استهلك من حرية الكلام جزءً من الف جزء مما يستعمله قتله الابرياء بالجملة وحطمة المدن والقرى والارباض على السنجية ونهبة المال والحياة والحياء معتزين باثمهم تحت شعارات تلألأت بجلال مفاهيمها واندرت قدسيتها كل أنسان يتصدى لتحريك الشفتين في الاعتراض عليها .. والكلام بيننا : أن العادة جرت منذ قديم الزمان أن تكون مكافأة الانسان الضعيف على تعكيره مزاج الأقوياء تقريعاً وتوبيخاً وتخطيئاً له من عامة الناس فقد اعتادوا تقبل الدلال والتطاول عليهم من القادرين على الظلم فتكون اولى ثمرات هذا الاعتياد تهزئ الضعيف الذي يمد رجله بأكثر من طول حصيرته . وللتهزئة هذه وجه خفي غارق في الانتهازية فالمستهزئون يزكون بها أنفسهم في سكوتهم عن الظلم ومع التزكية شعور مخنث بالرضا عن الذات . فها هنا ثلاث جنايات كبرى في طيات موقف مأساوي في سويداء اجتماعياتنا : فالجناية الاولى هي إدانة البريء المتبرع بالشهامة . والجناية الثانية هي مباركة جبروت الظالم في مواجهة الاستكانة العامة. والجناية الثالثة تلفيق براءة الدمة العامة بتبرير قوامه مزج مباركة الظالم بتهزئة رافضه . وماكنت لابلغ في التقريع هذا المدى لو كانت العامة يتقبل بعضها ظلم بعض بجزء من عشرة اجزاء تقبلها لظلم القوى أو أنها امتنعت من تقريعها للضعيف في تصديه للقوى وذلك أضعف من أضعف الأيمان بمراحل . لقد وجدت الضعيف يأخذ بخفاق الضعيف الى حد الهلاك قاتلا أو مقتولا ووجدته يقف للظالم اجلالاً الى حد المذلة ولو نهنه من عنفوانه مع الضعيف واختزل بعضا من خضوعه للقوى لما أختلت موازين حياته ولكنه استمراء المألوف . يسلكه فيما لاتدعو اليه ضرورة . أن القرآن عاتب النبي بلا هوادة حين عبس لضرير ضايقه بسؤاله وهو منشغل فيما هو اخطر فتسلسلت اياته من «عَبَسَ وتَوَلّى أن جاءَهُ الأعمى» حتى بلغ الذروة في العتاب أن يقول «أما مَنْ استَغْنى فأنْتَ لهُ تَصدّى» فما بال الحال تنعكس بعد اكثر من ثلاثة عشر قرنا من التطور الى العلمانية فيتعرض الضعيف للعتاب على

مضايقته واحدا من انصاف العتاة ؟ لئن كنت أجتر هماً عقيماً في معاتبة الناس للضعيف فان هؤلاء المعاتبين سيندمون تباعاً على التقاعس الجماعي عن ادانة المعتدي وإعانة المتصدي له فليس واحد منهم بناج من يوم يطرق فيه المتجبر بابه ويكشر له نابه ويطلبه حسابه بشريعة من شرائع الغابة ولات ساعة مندم والنواح في مأتم ! والقول هاهنا قد انتشر حتى عم الكل وهو في الأصل موجه الى قادة الطلائع وعموم المناضلين من حاملي مشاعل الثورة ومطارق الثورة المضادة فانهم المرشحون الاوائل للهرش والطحن في مطاحن التفسير المصلحي المادي التناقضي ذلك أن التنافس الداخلي في كل تنظيمات النضال على نطاق العالم حركة شايعة ومتصلة بطبيعة الفلسفات التي تحركها وبطبيعة التخلف المسيطر على مواطن تطبيقها فاذا جاز أن يختفي الاحتكاك بين الاباعد فليس بالامكان عدم الاحتكاك بين الاقارب . والمفارقة الكبرى في تجربة أولئك الذين يصلهم دور التصفية من مناضلي عالمنا الثالث السابع العاشر هي استبعادهم أن يلتف الحبل الذي في يدهم حول رقابهم فاذا (بَلَغت التَراقي) تلاشت كل الفلسفات والايدلوجيات بحلولها الجذرية ومعالجاتها الحدية واستحالت الى بؤرة ظلماء من انعدام النور فيا بشروابه أنفسهم نعيما وسرورا وهددوا الاخرين ويلا وثبوراً . أن الذي يختال على الناس كل عمره بدعاواه الرنانة في العلمانية والمصائرية والحلول النهائية يجد نفسه لحظة مسه حافة الموت قد استحال نفاخة فرغت بثقب اضيق من خرم الابرة فلا معين له على التماسك في الموقف العصيب الاالرجوع الى الرحمة والموادعة التي نبذها طول الدهر فهل تتسع الدقيقة والدقيقتان قبيل لفظ الروح ليطوي فيهما عرض حياته المقضية في الايمان بالحرق والشنق والسحق ويبسط مكانها غلالة من حرير التبشير بالسلام والصفاء تحبو عليها روحه أو طاقة حياته الى رحلة الانطواء والانقضاء والأنتهاء ؟ لاتطنوا هذا الكلام زخرفاً في هامش سفر الحياة غير نافذ الى صلب المعترك المدوي باحداث التأريخ فالمناضلون المتصايحون بنعرات البطولة وملاحم الاكتساح ماقدموا فيها عدا الفسخ والنقض إلا

الألفاظ :

فما أحد منهم وضع لبنة على الطين في حائط أحقر كوخ وانما تفضلوا من منبر السلطة عن طريق الأمر والنهي بما يجبر عامة الناس أن يفعلو ويتركوا فأنا وغيري من القائلين نساويهم فيما نتحف الجماهير من بضاعة الكلام وغاية الفرق بين البضاعتين هي مايميز حلاوة الموسيقى من ضراوة المدفع . ولئن كانت موسيقانا لم يتح لها أن تتبعث بالتبشير لينكشف مقدار الغلة المتحصلة منها فان بلاداً عديدة بلغت في الرقي مبلغ العزف على الكمان عوض المدفع في تفهيم مايجوز وما لايجوز فقد ظهرت بهاتيك البلاد مديات التفاوت بين القيثارة والرشاشة امتاعاً واهلاكاً ..

الكلام مني ومن غيري لاينال أحدا بالضرر فهو ليس مقذوفا ناريا يتبادله المناضلون في التحية الحدية وقصارى الخسار فيه ضياع جهد الفكر والصياغة على صاحبه ، ثم هو لايلزم أحدا بالأكراه فاذا حصل أسوأ الاحتمال بان اتبعه الناس فلم يجدوا فيه جدوى فقد كفاهم عزاء أنهم لم يجدوا فيه معارك . فليكن أن ماصرفه فيه القارئ من كلفة الشراء و وقت القراءة قد صرفه في الكلمات المتقاطعة أو رواية لارسين لوبين . أن خطورة الافكار تأتي من كونها برنامج عمل بما فيه من تبعات وتكاليف يتسلسل بعضها من البعض الى نهاية المدى ، أما النقد المنزه الذي يساق في ادانة العنف والحدية فغاية غاياته أن يكون كالزيت المسكوب على الحديد الصدئ يزيل صدأه ويجلو رونقه ويصونه من الاندثار ، وبفرض أنه لم يكن زيتاً أو أنه انسكب على الرمل المحترق فليس فيه ضرر لاحد ولكن ليس فيه أيضا سلوة لأحد فالجهد الضائع فيما يراد به خير الناس لا عوض عنه أبداً . أعلم أن كلاما خافتا كالذي اناجي به أحلام أناس يرومون الأمان من عنف أكتووا بناره أو اطرق به سمع المتشددين في مسالك الحدية والاستئصالية هو في قصوره عن تعديل المعوج و اقامة الحق أعجز من النسيم العليل في مواجهة العاصفة بنية ايصال السفينة الى بر السلامة ولكنه مع ذلك ورغم ذلك وبسبب ذلك يرقى الى مستوى الواجب المقدس الذي

يكون تركه إثماً كبيرا فاذا سكت اصحاب الكلام النسيمي كلّهم عم الاثم كل الناس كما يعمهم الاثم في تركهم واحدا من فروض الكفاية فالسكوت المطلق في الشر المطلق إدانة لذوات الساكتين جميعاً بلا استثناء وليتصور متصور خلو تأريخ الكفاح بين الحق والباطل من صلصلة ابي ذر وجلجلة بن حنبل مرورا بذوي الضمائر الحية في انسياب الزمان بكل مكان . ذلك أن خلو الانسانية من قولة (لا) تلقاء الباطل المستفحل هو تعطيل لنصف قوة الحق في طلب الكمال لان دحض الباطل هو نصف المسافة الى تمام البرهان .

ومن الهم الثقيل في هذا الباب كلام يردده العجزة علامة فاقعة على حركة المسكنة في عروقهم حين يقولون باشداق مفتوحة فيما يشبه التثاؤب أن بيت الظالم خراب ولو بعد حين فها هنا تلبيس للحق بثلاثة اثواب سميكة من التضليل : فهو يسكت اولا عن خراب بيت المظلوم حالا وليس بعد حين ، وهل سلم بيت العادل من الخراب ؟ ويكل الأمر ثانيا الى الزمان الذي سيؤذن بنهاية كل شيء دونما حاجة الى تكلف الجهد في دفع الشر أو طلب الخير . ويتغابى ثالثاً عن أن خراب بيت ظالم قائم هو بداية عهد ظالم سيقوم وليس مفتاحاً الى باب الفردوس ألا ساء مايزعمون ! أن غاية مايبثه القول بخراب بيت الظالم من السكينة في قلب السامع هي أن ظالما متعينا بالذات لايدوم الى نهاية الزمان وهي سكينة قد يحسها الغنم في انقضاء يوم بدون ذبح ! على أن بيت الظالم قد يعمر ويعمر يتوارثه الظالمون جيلاً بعد جيل ويرضخ له المظلومون جيلا بعد جيل فلا يبقى من ألاء تلك الموعظة الداعية الى الاحساس الكاذب بالأمان الا شيء من المخدر يغري بالتحلل من التبعات بانتظار الفرج الموكول الى المجهول المرقوب ، وغاية الفخر المترشح منها أنها أدانة للظلم على كر الايام وقد كفى هذا الفخر دليلا على الخواء واللامعنى أن الحكمة المذكورة تردد من الف سنة فلم تضف الى كفوف العدل ولانقصت من موازين الظلم مثقال حبة من خردل وما أظن احدا من الظالمين ضاق بها ذرعا أو امتنع عن ترديدها بشغف من ينفض الغبار

عن ذيل عباءته . كل فلسفة في الأرض وكل حكمة من السماء تكون معطلة اذا عدمت بشرا يؤمنون بها ايمان اداء وتنفيذ . والخير مادة هشة سريعة التلف تحتاج ضمانات قوية من متانة الخلق الاجتماعي وسلامة التصرف الشخصي كي تدوم لها العافية وهي لاتحتمل التأول والتمحل في الذي تعنيه وفي الذي يحميها فكل اخلال بالموازين التي رست عليها كفوف الحضارة في بلادها المعروفة يؤول في الختام بالواقع الاجتماعي الى أن يستقر على هوى الظالم فما كانت الدنيا قط تدور من ذات نفسها في مدارات الصلاح والفلاح والحور الملاح . ورب شخص ملحاح تمسك ببقية منزع في قوس الجدل فقال أن ترديد شجب الظلم على علات الاحوال خير من السكوت عنه وأدل على دوام نبض الاحساس بالخير والشر في العروق فأقول له بضمير مستريح أن الظالم يزدهيه تقبيح الظلم في مجلسه ليقينه من أن تأصل النفاق في عامة النفوس يمنع أن يكون هو المقصود بالتقبيح ولو أستعرضت تأريخ النفاق في توظيف الشعر لمدح الظالمين وجدت العجب من جرأة الشعراء في تقديس الطهر بمحضر الممدوح الذي تجسدت فيه أخس اشكال الفسوق وفي اطراء الرحمة من جلاد عصره وكل العصور الى آخر فهرست الرياء في قلب المعاني وصولا الى اسباغ أرقها وأشفها وارفها وأشرفها على أفسد الاقوياء طبعا واعتاهم سيرة واعماهم سريرة ، وربما كان وصف المتنبي لكافور بأبي المسك أذكى مخرج وجده للتملص من ضائقة الحرج فقد تجنب به الزلق الصارخة في شجب البياض مدحاً للسواد فجاء تحبيب السواد في المسك حافظاً لماء الوجه ودافعاً للعتب معا . ومما يضغط على العصب النابض بالحس أن كلمة الزلق المزجاة الى ذوي السلطان لم توضع قط على محك الصدق وأنما توزن بميزان البلاغة حتى اذا سلمت صياغتها مما يشين وازدانت بشيٍ مما يزين حلت من مراتب الأدب حيث يليق المقام بالنثر البديع والشعر الرفيع فتقرأ الاجيال في أكبار وأنبهار :

أرهبتَ اهل الكفر حتى انه

لتخافك النطف التي لم تخلق

وقد يحدث بعد أن تصير عظام المادح والممدوح رميما ويحصل الأمان من مغبة الصدق في تثمين الاثار والاخبار أن يبرز نقد هنا وقدح هناك ، ولكن تقريع الضعيف الذي يتطاول بتسمية قباحات العظماء قباحات يكون بلا تأخير ولا هوادة لأسباب كلها غير مشرفة فتقريع الضعيف يتيح ساحة اثبات الذات للمتمسكين في نزوعهم الى الوقوف موقفا يوهم بالقوة حتى ولو كانت وهمية . وأنتصارهم للقوى في غلاف مموه من النصح السديد والموعظة الحسنة فيه تعلل بالتفاتة من القوى ، أدنى بركاتها توقع الامان من بطشه . وفي مجمل الأمر تمهيد لمغالطة النفس بصواب الاذعان للقوة الغاشمة . وإنه لأكرم للمترلف أن يترلف بلا تبرير وأشرف للمتعالى على الضعيف أن يمارس خسته في خرس ولكن نزوع النفوس الى التلفيق الشهي يصرع فيها حب الحقيقة بلا رتوش ..

ومن الهموم الثقيلة التي تبعث في ظاهرها على الاستغراب أن ضراوة المناضلين في معاركهم الداخلية كراً وفراً أقرب الى التفاني والبطولة والعزيمة الصادقة من اشتباكهم مع العدو فان احدهم يثبت في خندقه تلقاء هجوم مناضل مثله كثبات الجلمود الذي غاص ثلثاه في الأرض الصلدة فلا يقلعه إلا الموت أو الانتصار . وتظل الشجاعة تغلي في عروقه في مقارعة صديق الأمس الى نهاية المطاف فاذا حصلت المواجهة مع العدو استيقظت في المناضل عوامل حب الحياة وتحري السلامة ووجوب المحافظة على احتياطي النضال المستقبلي من عتاد ونفوس وله تبريرات أخرى في التزام الحذر ونبذ المخاطرة تتسلسل ادلتها من احقاب التأريخ وتنبع من واقع الحال جلها معقول مقبول ولكن لم يأخذ بواحد منها في مناجزة مناضل مثله . والسبب في هذا المشهد المقلوب اعتباري ونفسي لاصلة له بالمصلحة المتمثلة في فلسفة النضال وبما تقتضيه من المواقف المتباينة فلا مصلحة حقيقية ولا موهومة في مهاودة العدو والغلظة مع أهل الدار ولكن

العلة كامنة في أن صديق الأمس انسان مألوف معروف بعيوبه ونقائصه ونقاط ضعفه حتى أن لحن شخيره وفرقعة نجشوه تميزه عن غيره وربما كانت تخمته عقب الوجبات الدسمة سببا كافيا في نظر صاحبه لحجب المنصب الرفيع عنه يوم يتم توزيع الأطايب على المجاهدين ! !ويكون عاراً كبيراً غير مبرر أن يرتخي المناضل في مواجهة شخص مثله لايفوقه في سبب من أسباب البطولة فليس منطقيا أن ينال على حسابه شرف النصر ويبوء هو بالعار .. هكذا يفكر ويقدر المناضل في موازنات الربح والخسارة حتى لقد رأينا في بعض سنوات السبعينات أن عشرات كثيرة من فدائيي قضية مشهورة استسلموا لعدوهم التأريخي الذي كان طمس وجوده الهدف الأوحد في بناء جهادهم و فدائهم ولم يرضوا بألقاء السلاح لاناس من بني جلدتهم كانوا ضيوفاً عليهم سنين طوالا . أن المناضلين في الفلسفات الحدية الجذرية يجدون التعايش السلمي مع ألد اعدائهم ثمرة مباركة من نعم الادراك العلمي الذي شع بالنور المنعكس من نظرياتهم على واقع النضال ! ولكن يستحيل عليهم التعايش مع مواطنيهم الذين هداهم وجدانهم الى رأي يختلف في بعض مناحي الاقتصاد أو الثقافة عن العقيدة الرسمية للأكثرية وقد تثبت الايام أن الصواب كان في رأي الأقلية بعد أن تكون قد أزيلت من ساحة الوجود .. أما مهادنة العدو الخالص العداء فلها تعليل ايضاً من حكم النفس لا من حكم المصلحة وهو تعليل ينطبق على ظاهرة السهولة النسبية التي يتقبل بها المناضل فوز العدو عليه بقياسه الى فوز صديق الأمس : فالعدو مخلوق مجهول الحيثيات والكيفيات والمواصفات لاتظهر نقائصه كظهور نقائص صديق الأمس ويكفي دليلا على بسالته أنه يتقبل خوض معركة الموت والحياة فالمعروف من أمره محسوب على رصيده الأيجابي فهو في القياس الى صديق الأمس أحوى لأسباب الفوز وأخلى من اسباب الهزيمة ولا يتسطح قطعاً كما يتسطح الشخص المألوف . ثم أن انكسار المناضل في مواجهة العدو من الاحتمالات المنتظرة بنسبة خمسين بالمئة أما الانكسار في المعارك الداخلية مع صديق الأمس فهو

عار مطلق وهزيمة مرفوضة جملة وتفصيلاً وتخلٍّ عن العقيدة يرقى الى مستوى الخيانة .. هكذا يفكر المناضل الحدي الجذري وله في سراديب عقله الباطن ، بل الواعي ، خيال لذيذ في (مكافأة الذات) بالمال والسلطان حلالاً زلالا في ضوء التخريج العقائدي لن يتخلى عنها لصديق الأمس لارضوخا لمنطق الحق الخالص ولا رعاية للخبز والملح الذي كان بينهما وهل كان الخبز ابتداءً الا من اسباب تسطيح صديق الامس وتركه بلا محتوى مرهوب أو مرغوب !

اذا استعرضت التأريخ تستل منه ثبتاً برقاب مظلومة قطعتها سكين تدعى إحقاق الحق ، وبأرباض مهدومة على فلاحيها باسم خدمة الفلاح ونصرة الانتاج ، وبمهلكات النفوس والأموال تنصب رخية سخية بالفتك الوبيل في الابرياء تحت خيمة منصوبة للعدالة !! واذا أحصيت مالايمكن احصاؤه من ثمرات العقول المبدعة أحرقتها أو أغرقتها يد الجهالة والسفالة ثم ضمنت ثبتك كل صنوف الفسوق والمروق من تلبيس الحق بالباطل وتمويه القبح بالجمال وتسمية الاشياء بأضدادها لطال ثبتك بطول التأريخ واتسع على قدر اتساعه بدأ بيومه الاول الذي تميز فيه الحق من الباطل واختلف الخير من الشر حتى يومنا الراهن المبسوط نطعه في اغلب بلاد الله تمارس عليه شريعة الكهف والغاب علماً بأن الموازين ذات كفوف الحق المرجوحة قد رجح باطلها وهي تزن الحقوق بين أهل البلد الواحد فهي أقصر باعاً من أن تكيل للأباعد الأعداء سما وزقوماً مما تجرعه الاقارب الاصدقاء ! ثم ان اليد الممسكة بالميزان هي في الظاهر يد حاميها لاحراميها... فاختر من كل ذلك هما يناسب مزاجك وافرغ فيه أساك.

ومن الهم الذي لاعلاج له في اي قاموس طبي يستقصي الادوية لأية علة اجتماعية تخطر على الذهن بلاء هو في تاريخ عالمنا الثالث يأخذ صورة الغيمة المطبقة التي لاتفلت جزءا من التراب وفردا من الناس، ومن اشكال استفحاله انه لايوصف او يشرح بالجملة والجملتين، بل انه يتطلب لتقريبه الى الذهن مثالا مضيئا مقنعا يمهد موضعه في قناعة القاريء وبغيره يكون بحثه

ضربا من العبث والتأكيد عليه من باب محاولة قبض الريح والدعوة الى الأهتمام بمضمونه خيالا وهراء : والمثال وارد في قصة النبي موسى اذ قال «لاأبرح حتى ابلغ مجمع البحرين أو أمضي حقباً» فلما لقي من كان «عبداً من عبادنا صالحاً» صحبه على الايعصي له أمراً «حتى اذا وجد غلاماً فقتله ..» نكون نحن قد وصلنا في القصة موضعاً طلبناه للتوضيح فقد قال العبد الصالح في تبرير مافعل «أما الغلام فكان ابواه صالحين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفراً ..» . وفي تأريخ النضالات والفورانات مذ كان نضال وفوران نماذج من قبيل ذلك الغلام يرهقون الناس شراً وبلاءً اذا تمكنوا وترسخوا . ولئن كان اكتشاف الفساد في طبع ذلك الغلام الى الحد الذي يتم فيه نصاب اليقين وتحليل قتله متوقفاً على تبصرة من رب العالمين فان المناضل الذي هو خليق أن يرهق الناس مكشوف منذ بواكير نضالاته بما هو عليه من الغلظة والعنف والدس الموصل الى القوة والنفوذ فليس اكتشافه بل يكون عدم اكتشافه باعثا على الاستغراب : هؤلاء القساة العتاة الغلاظ هم غلمانٌ من نمط ذلك الغلام لم يتهيأ لهم ملهم كصاحب موسى ينقذ البلاد والعباد من شرهم القادم بقتلهم غلماناً فكان دبيبهم العقربي من الطفولة الى الفتوة تناميا لميلهم الى الأذى وقدرتهم على البطش ومرانهم في القهر والتسلط فاذا كان ارتقاؤهم سلم القدرة المصروفة في أذى الناس بشتى وسائل التغرير والترغيب والترهيب من طبائع نفوسهم ومقتضي شرهم فان سكوت الاخرين عنهم رغم مايشهدون من افاعيلهم واباطيلهم ورغم ازدحام التأريخ المروى والمقروء بالامثلة المنذرة الباعثة على الانتباه ، هذا السكوت نوع من التوقيع على الحكم باعدام الذات . أنا افهم أن يسكت قطيع من الغنم عن نصب الذئب راعيا عليه فالغنم لايقرأ التاريخ ولا يفقه فنون حماية الذات ولايملك خياراً إلا الاذعان اضافة الى أنه في كل الأحوال يؤكل ان لم يكن بالذئب فبالبشر .. أفهمُ هذا فهما مقترناً بالتصبر على مكروه غير قابل للدفع . أما أن ينقلب البشر غنماً في استسلامه الى شرير صغير يؤول تحت سمعه وبصره الى شرير ساحق ماحق فهو مع كونه

أمراً مفهوما في حكم واقع كسبيح يعين على الظلم لكنه قاصر عن منحي تصبيراً خالطني في محنة الغنم فهو ليس على سبيل الحتم الخيار الوحيد الذي يصبح في معنى اللاخيار فانه اذا كان الغنم في سكوتلندة) يستوي مع الغنم في (أوغندة) فليس البشر في كل البلاد قطعاناً ممدودة الرقاب الى سكين جلادها كي يكون الهم في مصيرها هراة كهراء التحسر على بياض الشعر في المشيب أو انقطاع الكمثرى على أغصان شجرها في عز الشتاء أو نقصان البدر بعد تمامه . ثم أن هذا الكلام في جزئه الأهم يقصد عامة المناضلين وليس عامة الغافلين بالاضافة الى أن المحنة تنضح في غمراتُ النضال نفسه ولاتفرضها عليه قوة غاشمة تتربص به ريب المنون وتتمحل عليه بأفانين التضليل أفليس من باب الكفر بالنضال نفسه أن يمسخره المناضل مرتين كل منهما ترقي الى رتبة الذبح فالمرة الأولى حين يوجهه توجيهاً يخضعه لأرادة المغامرين ، والمرة الثانية حين يجرده من إمكان انقاذ الذات من قبضة المغامر بفرض (وحدة الرأي) المتمثلة في الخضوع المطلق للأوامر العليا . ويتعاظم هذا الهراء المستعمل في ادامة قهر الناس حتى يبلغ غاية غاياته في مقولة (دكتاتورية الشعب الديمقراطية) . ولما كان من غير المعقول أن يكبل الشعب نفسه ويلغي ارادته ومنطقه فالمآل المحتوم لهذه الحكمة المقلوبة أن تمارس القلة المختارة أو القاهر الاعظم هز العصا وفرقعة السوط ويصبح من قبيل البديهية أن يعجز الشعب تمام العجز عن تبديل المقولة بمقولة (ديمقراطية الشعب الديمقراطية) كما فعل السويدي والفنلندي والاسكتلندي ومن لف لفهم فتدوم بركات الدكتاتورية الديمقراطية في نكهة (حامض حلو) حتى تتهرأ بالتقادم أو يقضي الله أمراً كان مفعولاً .. ولن ينسيني الاستطراد العودة الى صدر الكلام بأن أوكد أن الخلاص من المناضل الذي هو نموذج للغلام المذكور في قصة موسى على النحو الذي تم به الخلاص منه أمرٌ في حكم المحال لانك اذا قتلت المناضل المرشح للغطرسة قبل وصوله الى السلطان تكون مارست قتلا بلا تبرير فلن يثبت على وجه اليقين ولا على وجه الترجيح أن فلاناً سينبغي ويطغي ويتجبر الابعد أن

يصبح باغيا طاغيا متجبراً فيكون قتله المبكر مانعاً من ظهور برهان تبريره فلا يبقى من وسائل دفع شره المحتمل الامنعه من الوصول الى السيادة والقيادة وهو شبه متعسر في كل النضالات الآخذة بالاسلوب الحدي الجذري فقد يصح القول بان اغلب المناضلين في ظل هاتيك الفلسفات دعاة سيطرة القلة وأعداء الاسلوب الخالي من القهر وربما كان كل واحد منهم يحلم بأن يتوج حاكماً بأمره في بعض سوانح الحظ المساعف فلا أمل في الحكم المستند الى الحدية والجذرية بشيوع الروح الديمقراطية الحقيقية السارية في البلدان الراقية ذات الانظمة البعيدة من مصادرة الارادة . ولابد هنا من القول بان الفرق معدوم في واقع الحياة بين حدية مستندة الى فكرة الطبقية وحدية مستندة الى حزبية تأخذ بغير الطبقية وحديه يمارسها طاغ بمفرده فهي جميعاً تلتقي في تحجيم الحرية بما يمنع أن يكون لصوت الناس أثر في الاحداث . ويلاحظ في طغيان الفرد الواحد أنه بسبب افتقاده جهازا حزبياً ينبث كجهاز الدم أو جهاز العصب في بنية المجتمع لاتطال يده كل صغيرة وكبيرة فيبقى متنفس هنا ومراح هناك تتفسح فيه الناس وتقضي سويعات من الزمان على هواها خارج هيمنة الاجهزة الأمنية التي لاتكون قائمة بواجبها كما تقوم بها في ظل التعاليم الحزبية الايديولوجية . ومن الهموم التي لايستبين الناظر لنفسه خلاصاً منها دأب المناضلين في عالمنا الثالث على رد كل بلاء وخيبة وشر وفساد في عالمهم الى كيد الاستعمار وشيطنته بما هو متصور وموهوم من أساليبه وألاعيبه . وأقول ابتداء ألا فلتنزل لعنة الأولين والاخرين بالمسيْ والباغي والمكتسح والمحتل قديمه وحديثه وليركب العار كل خيل وطئت ترابا غير ترابها وليخسأ كل متأول يسمى الهدم بناء والاسترقاق تحريرا والكفر ايمانا والتضليل ترشيدا : بعد هذه التعويذة اقول أنه كان من باب الغرام بالتشفي في ظلم سابق أن تستمر الشعوب في الصاق صفة المستعمر بدول زالت مستعمراتها وهبطت خطورتها في موازين السياسة العالمية درجات ودرجات حتى تكاد أن تكون تسميتها بالمستعمرة ضرباً من المجاملة كقولك لوجيه مفلس (يا

سعادة الباشا) . يضاف الى ذلك سبب اقوى في الابقاء على هذه الصفة وهو ما يحتال به الفاشلات من الدول في مجال الاقتصاد والتقدم لستر قصورها وتعليل ضعفها فتخترع سببا مبرراً لهذا الفشل بالابقاء على (الاستعمار) مشجبا تعلق عليه غسيلها فلقد وجدنا المناضلين أيضا وليس الدول فقط يحتفظون بمصطلح الأقطاعي كعلة تأريخية من علل اخفاق المساعي الخيرة في بلدان زال منها الاقطاع إلا ما كان منه محميا بالمناضلين أنفسهم أو بحكومات ثارت ضد الاقطاع ومن وراءه ولكنها استبقت منه من استبقت لحاجة في نفس يعقوب . وتندرج البرجوازية المجني عليها ضمن قائمة اعداء التقدم في نضالات شعوب لم تنشأ بها البرجوازية بعد فتراهم يرددون ويكتبون : فليمت الاقطاع وقد تم كفنه ودفنه وشبع موتا . وتسقط البرجوازية وهي لم تنهض اصلا . ويبدو من اصرار عموم اليسار على نعت الدول الاستعمارية القديمة بالمستعمرة رغم أنها لاتملك قدماً مربعة واحدة من أرض غيرها . يبدو من ذلك أنه لاخلاص لتلك الدول من هذا الوصف البغيض الا باحد الحلين الاتيين أو بهما معاً : فاما أن تتراجع في ثرائها وصناعاتها وفنونها وعلومها الى صف عالمنا الثالث وتمد الكف مثلنا فتقول ، يامحسنين صدقة لوجه الله وإما أن تقوم فيها ثورة يسارية تنفض بها الغبار عن اذيالها ولايبقى عليها اي جرح فيما لو احتلت ارض غيرها فانها ستكون عندئذ منقذة محررة أن لم يكن من الاجنبي فمن أصحابها كما تفعل فيتينام في كمبوجية وروسيا في افغانستان .. أن بلدا كاليابان التي هزمت في الحرب ووضعت عليها قيود في التسلح وسلخت منها الأرض توصف بالمستعمرة رغم أنها لاتملك حتى المواد الخام اللازمة للصناعة في دارها فهي خالية من اي وصف يمكن أن يلفق به صفة المستعمر المحتل الا ما كان من نشاط اهلها واخلاصها في العمل والجد في طلب العلم والتكنولوجيا فقد كفى في ذلك سببا لنعتها بالصفة البغيضة أنها تحاذي بل تسبق امم الصف الأول وأنها لم تقم بثورة يسارية تردد فيها يسقط الاستعمار ويموت الاقطاع والبرجوازية .. لقد آلمني حقا أن أجد رجلا جرىء القلب واسع الافق

مثل الرفيق غوربا جيف يصف اليابان في خطابه السياسي الذي القاه في الاجتماع السابع والعشرين للحزب الشيوعي الروسي نيابة عن لجنته المركزية بتاريخ ٢٥ شباط سنة ١٩٨٦ ، يصفها بالمستعمرة دون ادنى تردد أو تشكيك فاذا كان مثل هذا الكلام معياراً يقيس به العالم الثالث حيثيات وجوده الصالحة والطالحة فقد حرم عليه أن يكون بلدا مصدراً في يوم من الايام وإلا حسب على عالم الأستعمار . أن مجمل الكلام الذي نسمعه ينبعث في البلدان النامية و بين صفوف المناضلين من اليسار عبارة عن شريط مسجل ملئ بتبرير الذات سواء من حيث تفسير تخلفهم بعلات تلقي اللوم فيه على الاخرين أو بما يجاوز ذلك كثيراً في أدانة أي وجود أو تقدم أو أزدهار لايوظف لمصلحتهم فاذا شبع الياباني وحاذي الولايات المتحدة في الصناعة والتكنولوجيا فلابد من تفسير ذلك بنقل دم العالم الثالث الى عروقه – عروق الياباني – بواحد من التفاسير التي برعنا فيها وسلّمنا أو استسلمنا لنتائجها اللذيذة في حسنا والمهلكة لحاضرنا وقابلنا فلن يفيدنا تخدير اعصابنا بكيل اللوم للآخرين في مشاكلنا مهما كان التخدير لذيذاً ولن يكتب لنا التقدم اصبعاً واحداً ولايمكن أن نرى يوم راحة في اعمارنا اذا لم نرتفع الى مستوى الموقف بادانة الذات فيما نحن مدانون فيه وتبرئة الاخرين فيما لاذنب لهم فيه . لقد ألف المناضلون منذ الثورة الفرنسية قبل مئتي عام تمجيد المنطق البعيد من مقتضيات الأحوال ودواعي المكنات المعقولات فقد حلا في مذاقهم مقولات متشنجة في مثل تشنج الحالة النضالية القلقة التي يعيشونها وقد قدر لهذه الظاهرة أن تدوم أكثر من العمر المقدر لمواعظ المناسبات ، بسبب أن المنظرين والمناضلين عموما ناس خلوا من مسؤوليات المعيشة وتربية الأسرة والأولاد وصارت بضاعتهم كيل الكلام وصياغة الشعارات وتنظيم المسيرات والمظاهرات وما بعدها من التدابير المستهدفة لتبديل الحكم تمهيدا لحلولهم هم محل الحكام البائدين فاذا أصبحوا حكاما كان مما يوافق صرف الافكار العامة عن أنفسهم أن يستمروا في مشاغلتها بمعاداة الاستعمار والاقطاع والبرجوازية وانصار الثورة المضادة

فكان لابد للأستعمار أن يعيش في الأدب السياسي الثوري حتى ولو كان عهده قد مضى وانقضى فجاء اذكياؤهم بتلفيق ما سموه (الاستعمار الجديد) وهي حيلة طويلة العمر لاتسقط من الاستعمار كما سقط مصطلح الاستعمار القديم لانها مرتبطة بوجود دول متقدمة صناعيا وتكنيا وعلميا ولانرى سببا داعياً لاختفاء هذه الدول كما اننا لانرى بشارة واحدة بوصول الأمم النامية (كانت تسمى متخلفة) الى مستويات من الثبات والرسوخ والتقدم تغنيها من تلفيق عكازات وهمية تقيم بها قامتها المترنحة . لقد كان العثور على مقولة (الثورة الدائمة) من قبيل الاختراع الذي تأتي به الحاجة في ميدان ادامة الهيمنة المباشرة على جماهير الكادحين والمادحين وغير المادحين فكان اكتشافاً موفقاً يديم نفسه بلا تعب من أحد فهو دائم بلا نهاية . ويكاد مصطلح الاستعمار الجديد يوازي شعار الثورة الدائمة في القدرة على الديمومة وبذلك تنطبق الدائرة على نفسها بلا فجوة : ثورة دائمة في الداخل واستعمار دائم في الخارج فلا املك نفسي من وصف هذا الذي يحتال به المناضل على بني قومه في هاتيك الاحوال ، انه لعبة الختيلة أو الأستغماية مع ملاحظة أنها لعبة بلا أنتهاء أو فترات راحة .. أنها صوم بلا إفطار .

لقد حل الاستعمار بقديمه وجديده في مخيلة المناضلين والأنظمة الثائرة محل ابليس في مخيلة اصحاب العقيدة السليمة فأصبح طقساً من طقوس سياسة اليسار لا ارتباط بينها وبين واقع الأمور . ومن الواضح أنه بقدر مايكون أمر من الأمور منقطعاً في وجوده عن الحقائق الحية الملموسة يكون دوامه أيضا مستغنيا عما يديمه خارج المنابع التي أوجدته أصلاً وهي هنا مخيلة المناضلين من اصحاب اليسار . ومن هنا ينشأ احد الهموم الكبيرة للرعية في العالم الثالث فانها لن تفتح عينها على الشبع والامان قبل أن تقطع سبيلاً طويلة على شارع الواقع غير المموه فلا أمل لها في خبز مغموس في العسل والقشدة إلا بعد أن تكون مسحت قاموسها الضخم من الكلايش اللفظية المضببة المضللة ولن يكون هذا ممكنا بوجود هيمنة يسارية قوية على مسار التأريخ الراهن

والمستقبل مالم يقلع اليسار من ذات نفسه عن طقوسه السياسية هذه بالانتقال الى ممارسة الحياة بلا طقوس وتجريد ادبياتها وشعاراتها ومفاهيمها من القدسية المعزوة اليها حتى تصبح أشياء بشرية تحتمل الخطأ وتطلب التصحيح : اذا كان مقبولا أن يقول الشاعر المصري في مقتل مسؤول انجليزي حُمل الشعب المصري ثمن دمه مئاتِ الألوف من الجنيهات ، أن يقول :

قتل شخص في غابة جريمة لاتغتفر
ونهب شعب آمن مسألة فيها نظر !

فأنه يكون وأجباً انسانياً أن يستنكر قتل الالاف من سكان حما على يد قوى الأمن السوري ونحن نذكر كيف أدين المستعمر الفرنسي على عهد وجوده في سورية على قصف دمشق بالمدافع وقتله عددا من الناس لا أظنه يبلغ واحداً من خمسين مما قتل في مذبحة حما . صحيح وألف صحيح أن يوصف المستعمر بلا تلجلج على حسب مايستحق ، ولكن صحيح ايضاً وألف صحيح أن قتل الناس وتخريب بيوتهم لاينقلب الى شهد وسكر اذا جرى على يد الحكومة الوطنية وأن الظلم هو ظلم سواء اقترفه العدو أو الصديق وأن عشرة قتلى أوجع من قتيل واحد بصرف النظر عن هوية القاتل . أن الشعوب ليست قطعان غنم حتى يكون افتراس الذئب لواحد من اغنامها كارثة ويكون سوق ألف منها الى سوق اللحم في المدينة من قبل مالكها تجارة رابحة. لافرق من حيث الدلالة الاجتماعية بين عامل واحد قتل في مظاهرات البصرة سنة ١٩٥٤ وكان سببا في اعدام وزير ملكي بعد ثورة تموز وبين التنكيل بجماعة من عمال السجاير في بغداد بعد أقل من سنتين من قيام الثورة واذا كان من فرق فهو من ناحيتين : أولاهما أن الثورة قامت حتى لايقتل العامل في مطالبته بحقوقه لا أن يهدر دمه . والثانية هي أن عاملا واحداً مقتولا أقل إدانة من قتل العمال بالجملة . وفرق ثالث اعتباري هو أن ظروف المظاهرات تتيح مجالا أوسع لوقوع الضحايا من ظروف الاعتصام داخل جدران المعمل . اني لا أتطوع بتبرير شيء مدان وقع قبل

الثورة ولكني اتطوع بتقريب صورة من صور ماقد شاع منذ الثورة الفرنسية من تبرير اليسار لذاته وقد اتسع بابه حتى جاوز حد المعقول واللامعقول بأن صار التوسع فيه يبيح تصفية شركاء الامس في الجهة الواحدة ثم تصفية صديق اليوم بحجج جاهزة أحلاها مرة وأجملها شوهاء .

نشر ملابس الغسيل على حبل الاستعمار أو غيره من الحبال فضلا عن كونه علامة من علامات فقدان الرشد السياسي ، نذير بأحباطات خطيرة في المسار التاريخي لأي شعب من الشعوب فهو في القياس المبني على البديهة ايقاف حركة الزمان نفسه عند الستينات كأقصى حد طويت فيه صفحة الاستعمار . والواقع هو أن الحرب الثانية يمكن اعتبارها ذلك الحد الأقصى فقد كان ثابتاً أن الاستعمار الفرنسي بعد خسرانه حرب ١٩٤٠ قد أفل نجمه افولا محتوما وان الاستعمار البريطاني لم يعد يستطيع فرض ذاته على مشكلة كبرى كالهند وأن توزع مستعمراته على مسافات متباعدة في عصر استبد به القلق يستل روح الشعب البريطاني المصدوم في الحرب في اجل قريب فكانت سنوات مابعد الحرب فترة نزع الروح بمعنى الكلمة في تصفية استعمار لم يكن الشمس تغيب عن أرضه الى وقت قريب . وجاءت حرب العدوان الثلاثي في سنة ١٩٥٦ آخر خفقة لمصباحه ما سطع بعدها أبداً . أما دول المحور فقد كانت خسارتها للحرب مغنية عن بحث موعد لزوال سلطانها . مع هذا يجوز من الناحية النظرية القول بأنه كان من الممكن أن يدوم الاستعمار فترة أطول فيما لو كسبت دول المحور حربها مع الغرب والشرق (روسيا) فكل نصر كبير له زخم ودفع ذاتي يطيل عمر المنتصر لاسيما نصر لدول فتية ذات حماس منتفض وشهية منفتحة وأنصار مفتونين بالبطولات وذوي نقمة على المحتل المهزوم ، ولايعلم أحد ما كان شكل الدنيا خليقاً أن يكون في ظل انتصار المحور ولا من اين كان الرتق بين دولها تفتق وكيف سيدور نول الغضب وعدم الرضا من عامة البشر على ورثة الدنيا فقد كفانا التأريخ استظهار صفحة جديدة من سفر الشعوب المبتلاة بنفسها وبغيرها ، والغالب المحتمل هو أن تجربة المقهورين مع الفاشية

كان مقدراً لها أن تكون أثقل كلفة . وكل هذا الكلام لايخرج عن اطار التنجيم والرمي في الفراغ وان كان مستندا على اسس مقبولة من القياس والاستنتاج . على أي حال أنتصبت الولايات المتحدة بعد الحرب قوة اقتصادية وسياسية عظمى تقع موقع القمة من الدول الاخذة بنظام الاقتصاد المبني على طلاقة جهد الفرد ضمن ضرورات تفرض سمتها على نوع هذه الطلاقة ومداها ، تواجهها القوة العظمى الاخرى المتمثلة في روسيا السوفيتية كطرف معادل قام بالاصل من مفهوم (النقض) المطلق لما كان سائداً في الدنيا من سياسة واقتصاد ومعتقدات ولكنه بدوره نزل في امور كثيرة على حكم الضرورة خلافاً لمنطق قيامه سنة ١٩١٧ فما كانت أمور البشر في كل المسافة بين العقيدة و بين عبث الصبيان مقسومة على لونين (ابيض واسود) فقط وأن ظن المتزمت والمتعصب خلاف ذلك . والولايات المتحدة تملك الاسكا بالشراء من روسيا القيصرية وارضين اخرى بالشراء أيضاً ولكنها بثرائها المذهل أتاحت خير ذريعة لاختلاق مصطلح الأستعمار الجديد وكان غباؤها السياسي عاملا مساعداً قويا في بقاء المصطلح دافئا في الملمس وسائغاً في المذاق وقد وجدت (دين اجيسن) من وزراء خارجية امريكا السابقين ، يقول في كتابه Power and deplomacy (القوة والدبلوماسية) يقول أن محنة الغرب تتمثل في أن امريكا تملك القوة ولاتملك العقل و بريطانيا تملك العقل ولاتملك القوة . وليس ذلك كله الا هوامش حول الحقيقة الهامة في موضوع الاستعمار الجديد منظوراً إليه من زاوية الحقيقة المجردة ومن زاوية مصلحة العالم الثالث التي لاتنفصل عن الحقيقة فلست اذيع سرا أو اقترف إثماً اذا قلت أن هذا الاستعمار الجديد مودود اكثر من الحكم الروسي في كثير من بلدان الشرق الاوربي ذلك أن مشكلتهم تتشابك مع الاتحاد السوفيتي وتأريخهم ينساب من منابع النفور لا المودة مع الروس قديما وحديثاً . ولتعكس الاية في العالم الثالث فليس لهم مع الروس مشكلة بل يحدون من وجود الروس كقوة معادلة لقوة الغرب متنفساً ومعينا على الحركة والمناورة و المساومة في مشاكله التاريخية مع الغرب ، ولا ادخل

في تفاصيل هذه الخارطة العامة وماقد يقع فيها من خروج على القاعدة العامة أو من خيبة أمل خلافاً للتوقعات فاختصر القول فيه واقول أنه لولا حكم عموم الواقع على الساحتين لما وجدت باتريس لومومبا يركب مركباً مبالغاً في قوته ويطلب مطلباً مبالغاً في استسهاله منساقاً في ذلك مع نزوع داخلي الى الانطلاق من كل قيد لرد الصاع صاعين في الاخذ بثأر الكرامة ، ولما وجدت الشعب البولوني يسجد للبابا بعد اربعين سنة من اعلان الالحاد الرسمي وهيمنة الحكم الشيوعي الحليف مع الروس .. فاذا اضفت الى هذه النماذج ما وقع سنة ١٩٥٦ من عدوان ثلاثي على مصر من قبل الغرب ومن احتلال روسي للمجر في الوقت ذاته خرجت بتصور متحرر من التحامل أو التحيز لمدى اختلاط العامل الذاتي مع العامل الموضوعي في تكوين الرأي فلقد كان العالم الثالث كله صوتاً واحداً في إدانة العدوان الثلاثي على حين قد برزت فيه اصوات كثيرة بتبرير ماجرى في المجر ولم يكن في اوربا الشرقية مجال لصدور صوت غير الصوت الرسمي المسيطر على وسائل الاعلام فانحصر تعبيرها عن الذات في موضوع المجر بما ظهر عليها من القلق الذي ساد تصرفات أهلها وكان مكتوما ومحظوراً بالقانون وما وراءه من أجهزة السيطرة الأمنية ..

إدانة الأجنبي سواء ما كان منه يسمى استعمارا جديدا أو طرفاً طامعاً أو مضللاً في الذي يقع ضمن اطار اختيار العالم الثالث ، هذه الادانة تكون حقاً اذا جرت في أمور واقعة غير ملفقة أو موهومة وتكون تضليلاً للذات ، وما أكثره ، اذا جرت في تبرير أو تعليل اخفاقاته . ولابأس هنا في فتح حدقة العين على مقاس مطلوب للرؤية في العتمة ، فالضباب الناشئ من تبرير الذات وإدانة الاخرين خليق أن يجعل وضوح الرؤية بالعين الأعتيادية أمرا بالغ الصعوبة فلكي يكون النظر سليما صافيا في التعامل السياسي أو الاقتصادي أو في اي حقل اخر يلتقي فيه البشر بالبشر يجب على الناظر اذا كان طرفاً أو ذا صلة في التعامل أن يضع نفسه موضع الطرف الاخر ليعلم ماذا كان منتظراً منه هو نفسه أن يفعل : فلربما وجد بهذا المقياس أن تصرف الطرف الاخر شيء

معتاد مقبول ، ولا يندر أن يكون أكثر من مقبول بأن يدخل في معنى الكرم أو الاستقامة الزائدة في ضوء مايفعله هو بالذات في ظرف مماثل . وليس من شك في أن تصرف الإنسان يكون مقبولاً بمقدار حظه من الحضارة لسبب واضح وهو أنه يكون خلال مئة سنة من عمره وعمر أبيه وجده قد ألف سلوكاً تفرضه معايير الحضارة بلا تكلف مثله مثل ساكن المدينة في نظافة بيته بالنسبة الى بيت ساكن القرية في بلدنا أو ندرة اخفاء الدخل في البلدان المتحضرة بنية التهرب من الضريبة وشيوع ذلك مصحوبا بالرشوة في العالم الثالث على نطاق مخجل . وليتذكر من يعجبه كيل اللوم لدول الشمال في قلة سخائها مع دول الجنوب أن اصحاب المداخيل الضخمة في دول النفط وجلها من العالم الثالث لم تراع فقر الجياع وهي تستغل فرصة ارتفاع اسعار الوقود حتى وصل سعر برميل النفط ثلاثين دولاراً أو اكثر بل أن لك مقياساً أدق من كل ذلك في تقويم المواقف على أصعدة متعددة في البلد الواحد فانه اذا كان متخلفا شاع فيه ضعف الشعور بالمسؤولية وتنوعت اساليب التهرب من الواجب وأصبحت المحاباة والمجافاة شبه قاعدة عامة في تعامل المسؤول مع اصحاب المراجعات حتى أن رئيس دولة من هذه الدول فوتح في تفشي الرشوة على نطاق واسع شمل حتى السلك الدبلوماسي في حكومته فقال في الجواب أنه على علم بذلك ولا يمانع فيه لأن ذلك ادعى الى تمشية الأمور بلا عرقلة . وانظر الى تعامل السياسيين في هاتيك البلدان المتخلفة بعضهم مع بعض وعدد الانقلابات والتمردات مابين ناجحة وفاشلة بما فيها من كوارث تنصب كالقضاء المبرم على رؤوس الرعية وارفع بصرك الى دول الوحدة الأفريقية فأنها لاتصادق على جدول الاعمال لأي من اجتماعاتها الابعد طلوع الروح . لقد سمعنا العجب العجاب من الطريقة الجهنمية التي توزع أو تنهب بها المساعدات العينية المتبرع بها من الدول الغنية الى المناطق المصابة بالقحط وكيف أنه في اكثر الأحوال التي تعتبر مواتية لاتعطي اللقمة للجوعان الا بثمن من رأيه وعقيدته وبقية باقية من انسانيته . أن انسان العالم الثالث خارج

دائرة الحكم لم يزل منذ خمسة آلاف سنة يرتجف خوفاً من الشرطي ومن كل انسان يلمع فوق صدره وكتفيه النجوم والشارات فهو يولد ويعيش وعليه وسم بالأدانة المسبقة تجاه السلطة حتى يواريه الثرى في بطن وطنه . لقد كان من تجربتي الواعية خلال عمري أن اتحاشى دائرة حكومية لا اجد فيها صديقاً لي يحميني من امور محتملة غير مرئية تحدث لعامة المراجعين يضيع فيها الحق والجهد والاعتبار . فأنا ادرك مدى افتقادي من موقع مواطنتي لاي سلطان قانوني يمنحني ما أواجه به اي موظف صغير أو شرطي في أسفل سلم الدرجات يعجبه أن يتعابث أو يتجاهل أو يتعاظم . ومن باب نافلة القول أن اصطداماً قد يقع بين المراجع وبين الموظف يحتمل معنى الاعتداء على الموظف وقت أدائه واجبه الرسمي مئة مرة قبل أن يحتمل تجاوز الموظف لصلاحياته مرة واحدة . والكلام في هذا الأتجاه على نطاق العالم الثالث يطول ويطول الى غير نهاية ولن يكون سهلاً على الكاتب مهما أوتي قوة البيان وبراعة الاسلوب أن يسمح لقلمه بالخوض في أقابح صور الغطرسة من جهة والاستكانة من جهة في هذا العالم العريض المريض واللبيب تكفيه الاشارة :

فكان ماكان مما لست اذكره
فظُنَّ خيراً ولاتسأل عن الخبر

أن أفانين السخف والترهة والتجبر الاحمق المأفون التي تحدث في كل اصعدة عالمنا الثالث هي من النوع المبتذل الذي لاينزّ الا من طبائع اناس ألفوه واستأنسوا به وليس ممكناً أن يشد المستعمر رحاله من اقاصي الدنيا كي يفكر في ابتداع هذه الحقارات لأنها من البؤس والفظاعة بحيث أنها تفسد خطط ناس يستعملون أجهزة العلم الحديث في الاستكناه والتوجيه والتنظيم فلا يمكن أن تكون لهذه الأجهزة لغة مشتركة مع عيدي أمين ، مثلاً . فنحن نجامل أنفسنا حين نعزو فساد العلاقة بين حزبين أو جهتين أو دولتين على أحقر الشؤون ، نعزوه الى كيد المستعمر

ودسيسة الاجنبي فكأننا كنا محتاجين الى من يوسوس في صدورنا ويضلل فطرتنا لارتكاب أخس الامور واشدها منافاة لمعنى الانسانية وأخلاها من كل مايسمى مصلحة أو منفعة . أن عالمنا الثالث قد تقولب فيه اصحاب الشأن على كتم صوت المعارضة لما يفعلون أو المطالبة بعدالة القوانين منذ كان عالم ثالث فهل كانت به حاجة الى اجنبي يعلمه فنون التضييق والتلفيق توصلاً الى دنيا بلا تأمة اعتراض ؟ اننا نضيق الى حد الاختناق بممارسة أمم على الارض حق التعبير عن الذات ولو طالت يدنا كتمنا أنفاسها وسددنا صحفها ودور نشرها واستللنا من عقولها وقلوبها غرامها بالحرية وإصرارها عليها حتى لاتنبعث منها شرارة الينا قد تحرق بعض القش المتراكم حولنا من التحجر على الكبت والحظر والحرمان . وليس غريباً أن تكون حكاية الحرية في العالم الثالث مأساة حياته في عصر الكهرباء والذرة وريادة الفضاء فقد ترامى إليه في العصور الحديثة أن في الدنيا شيئاً اسمه حرية في التصرف وحرية في الأختيار وحرية في الرفض فما كان له بها عهد ولا ارتسمت صورتها في ذهنه أو انشغل بابتداعها قبل انتشار معانيها في الدنيا من نحو قرنين وبالخاصة منذ الثورة الفرنسية وكان دبيب هذه الافكار الى ربوع العالم الثالث وئيداً بطيئاً تراخت وتلكأت دهوراً قبل أن يلج بصيصها الى عقول القلة النادرة من خاصة الخاصة ، وماتهيأ لها قط أن تصبح من معقولات الجماهير . فالحرية بمفهومها الحديث ليس لها جذر تأريخي في العالم الثالث فلم ينهض فيه نظام عبر الزمان كله يستشف بشكل منهجي وقانوني رغبة (الرعية) ورأيهم في الأمور صغيرها أو كبيرها ولافكر احد من أهله في ابتداع الوسيلة الكفيلة بنقل اراء الناس ونشرها فضلا عن أن الناس انفسهم لم يكونوا بوضع اجتماعي يحوجهم الى التفكير في (الحرية – اللبرالية) فلو أن عبقرياً اقترح عليهم ممارسة الحرية بمفهومها الحديث لاحتاروا في أمره . اننا لسنا في سعة من أمر هذا المقال كي نتوسع في الواقع التأريخي الأوربي الذي جعل مونتسكيو وفولتير وروسو وامثالهم دعاة فلسفات سياسية اجتماعية اعتبرت منابع فكرية لنشوء الثورة

الفرنسية كي تنتقل منها عن سبيل المقارنة الى تفهم خواء الشرق عن امثالهم ويكفي أن نقول أن أقصى مابلغه العالم الثالث من الطموح الى العدالة والأمان هو التعلل بوقوف الحاكم والمقتدر عند حكم القوانين الوضعية والسماوية ولم تنشأ في العالم الثالث تنظيمات حزبية مبينة على اساس فكرة سياسية دنيوية تحوي ناساً معينين ضمن شعوز متقارب بالمصلحة . والحديث في ذلك كله يطول الى غير نهاية فلم اجد داعيا الى الخوض في مأتي انبعاث حركات هنا وهناك من قبيل الباطنية والخرمية تحمل سمات توهم بوجود تماثل بينها وبين تنظيمات حزبية اشتهرت بها أوربا فأتجاوزها بقولي أنها كانت جميعا في أودية خاصة بها لاتتصل بفكرة الحرية السياسية التي تفتح بوجه (الفرد) باب الانطلاق من القيود المفروضة عليه من خارج قناعاته فلم يألف العالم الثالث دعوة جدية الى حرية العقيدة في تأريخه القديم كله ولا طرق سمعه نداء الى تغيير الحكومة في استفتاء عام .. أتجاوز ذلك وغيره مما لايتسع المقام له لأقول أن شعوب العالم الثالث جوبهت بمعاناة فقدان الحرية في عصر الكهرباء والذرة دون أن تملك خلفية تأريخية في ممارستها على نحو خليق برسم منهج لحمايتها فقد دخلت عليها أفكار مرتبطة بالديمقراطية والحريات السياسية مع قدوم الأوروبي مستعمراً لبلادها ولانكاد نجد فرقاً كبيراً بين تلقيها لهذه الافكار وبين استقبالها للسيارة والطيارة فان تعاملها مع الشيئين كان بكثير من القصور والفتور مع ملاحظة أن ركوب القطار ، مثلاً ، أسهل من الجلوس الى مائدة الطعام بما يرافقها من اداب ومراسيم وهي بدورها أسهل من التلبس بالأفكار والتخلق بالصفات المكتسبة حتى تتساوى في اليسر مع الصفات والغرائز الفطرية فالشرقي اذ يقلد الغربي في التحزب والدعوة الى الحرية وفي ممارسة الحقوق المرتبة عليها و الواجبات المنبثقة منها يعاني كثيراً في التوفيق بين نزوعات دخيلته الخالية بالأصل من هذه الالتزامات وبين متطلبات الحزبية والليبرالية والحرية التي من شأنها أن تقولب الانسان على مقاساتها فهو يبدو كالشخص المحرج بملبوس شديد الحبك يضايق جسمه ولو اردت زيادة في

التوضيح قلت لك أني عز وندر عندي أن أجد موظفاً شرقيا فكر في القيام بواجباته في الوظيفة على الوجه القانوني والاجتماعي السليم لأن الوظيفة عنده في أحسن احتمالاتها وصورها وسيلة للعيش الحلال أما في صورها المعتادة فهي باب الارتزاق الواسع على حساب حقوق المراجعين أما أن تكون الوظيفة مزيجاً من الكسب الحلال والخدمة العامة عند الشرقي فهي أن لم تكن معدومة بالمرة فهي بالتأكيد أندر من الأكسير. ولك أن تستزيدني وضوحاً لأقول إني أترك الوظيفة والحزبية والتفاني من اجل الحرية فقد كفاني أن اقارن بقالا عراقيا الى بقال دانماركي ، والبقالة جهد ذاتي في مصلحة ذاتية لايحتاج ممارسها الى المجاهدة وقمع النفس وقتل الشهوة ليستقيم فيها تصرفه ، فسترى أن الفرق بينهما يصل مديات تحمل على الفجيعة وأعفي نفسي من بحث تفاصيلها لعلك تزور هاتيك الديار وترى بنفسك ماذا يعني النور والظلام والقبح والجمال ... فاذا كان العالم الثالث لم يتعود الالتزام بوزن الكيلو والحقة في الموزونات ولم ينشرح صدره لاداء الواجب الوظيفي بلا التواء فما عسى أن تكون هذه الحرية والليبرالية و الحزبية من مراتب القدسية حتى يستهلك فيها ذاته ويحيلها شمعة تحترق للاخرين وهل من المنتظر أن أسرق في وزن البطيخ ثم استقيم في الليبرالية ناخباً ومنتخباً ومستوزراً في بعض الاحيان ؟ أم اني اتنازل طواعية عن الأولوية والقيادة في الحكم والحزب بعد أن اكون قد تعودت على التمسك بعشرة غرامات من وزن البطيخ والشلغم ، أسرقها عند بيعها للشاري ؟ هيهات هيهات لما توعدون ! ! على اي حال ودونما حاجة الى الخوض العميق في اسباب الظواهر السلبية الخارقة للعادة في ممارسات العالم الثالث لاجتماعياته يجوز القول ببساطة متناسبة مع وضوح الحقيقة التي اتكلم فيها وهي أن شعوب عالمنا لم تفتقد حريتها في الماضي الاقدم حتى ازمانها الحديثة بسبب اختفاء فكرة الحرية ذاتها فانك اذا طلبت من الأحياء العائشين في الشرق الاوسط قبل قرنين من الزمان أن يستعملوا حرياتهم السياسية في الحياة العامة احتاروا في فهمك لانعدام اي معنى لكلامك بسبب انعدام أي ميدان

تمارس فيه حرية الاختيار : لم يكن لأحدهم تصور عن معنى الحرية الا إذا تداعت من العبودية حتى ان قولة الخليفة الثاني المضيئة : كيف استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم احراراً تشير الى تمام الحرية عند زوال الرق . لقد رأيت بنفسي في بواكير عمري مساحات واسعة من العراق لاتشعر بالصحف كما تشعر بالقشة التي تأكلها النعجة ووجدت مدناً لاتسأل عن ورود جريدة إليها وليس لها هم في الذي تجري ببغداد وتساوي عندها وجود البرلمان من عدمه ... اقضية كثيرة لم تكن تقرأ جريدة واحدة خلال الشهر والشهرين وعامة الناس كانت في غير وادي الصحافة ولو قدمت اليها مجاناً لما اخذها لانها لاتقرأ واذا قرأت لها لاتفهم واذا شرحت لها لم تهتم . الصحافة والثقافة عموما كانت في حياة اولئك الناس في غرابة الحديث عن المسارح التي لم تولد قط في ربوعها .. عشرات الألوف منهم تقوم في الصباح وتتكسب اثناء النهار وتأوى الى مناماتها في اوائل الليل دون ان تصادف شيئا على الاطلاق يثير عندها مجرد مفهوم الحرية حتى ولو كان ذلك من باب الخيال : صحيح انها كانت في قعر الفاقة وتعاني مشاكلها الحياتية ولكن بمبعدة قصوى من فكرةاللبرالية وما في معناها ولااظنها فهمت حتى يومنا هذا صلة خبزها ومصير حياتها ومستقبل اولادها بالانتخابات وصراع الأطراف المختلفة على الحكم . انها كانت رغم جهلها بمفهوم السياسة تكره كراهة تحريم كل اجراء حكومي من شأنه ان يخلق لها تغييرا في رتابة حياتها ليقينها بأن ماتطلبه الحكومة لايمكن ان يكون مؤديا الى نفع عام . تلك هي صورة اللوحة الاجتماعية السياسية التي يعيش الناس في اطارها يوم فتحت على الدنيا عيناً واعية وهي بالضرورة كانت اشد حلوكة في قرون مضت فلا معنى لانشغال المنشغل بالتحدث عن غرام الأجداد الأقدمين بالحرية كما نفهمها اليوم . لقد كان أقصى أمانيهم ان يكون لهم حاكم عادل يتطوع بالمعدلة فيما تقضي . لذلك صارت مسألة الحرية بعد تفشي القول فيها مأساة حياة شعوب العالم الثالث لاقبل ذلك وهي اذ اصبحت مأساة فقد بقيت ادهاراً وادهاراً مأساة النخبة التي قدرت

أن تفهم ابعادها ومراميها ، ودامت مأساة من زوايا متعددة لا زاوية واحدة فهي أولاً فُهمت فهما نظريا كما نفهم الشطرنج دون ان يكون له صلة بواقع الحياة فالحرية والليبرالية حلت ضيفاً ولم تنبعث ايماناً ووقناعة نابعين من واقع الحياة ولافرق بين غرامك بالسيمفونية بين ناس يجهلونها بل يكرهونها وبين ايمانك بحرية الانتخاب في شعب لايفهم الأنتخاب ولايرى صلة له بمصلحته ويلمس ثقله وكلفته كضريبة اضافية مكروهة تضاف الى بقية التكاليف والمتاعب المتولدة من وجود الحكومة في اهمالها لشؤون الرعية . فاذا انقطعت الصلة بين الليبرالية وبين مصالح الناس فقد أصبحت ، وبالخاصة في المراحل الفجة الاولى لظهورها ، عبثاً عقيما لا طائل من ورائه .

واذا كان المقام لايتيح مجالا كافيا لشرح الأمور على الوجه المقنع فاني اكتفي بالاشارة الى ان هذه المفاهيم والاساليب التي اتبعت اثناء نموها في عالمنا آتت أكلها في بلدين اثنين هما مصر والهند وذلك بسبب نشوء ارتباط بين واقعها الأقتصادي والثقافي الذي اتسم بالتطور والتقدم خلال القرن التاسع عشر خاصة ، قياساً الى بقية البلدان وبين النظام الليبرالي المعبّر أصلاً عن ثقافة واقتصاد ونشاط اجتماعي تنحدر عن لغة تتكلم بها فالحرية السياسية والحرية الأقتصادية في اطوار ماقبل الشيوعية امران متلازمان لاقيام لأحدهما دون الآخر فلا حاجة بأحد الى تكلف رفض الليبرالية اذا لم يكن له اقتصاد حر مزدهر لأن الليبرالية ترفضه بطبيعتها وبلا تكلف مَثَلُ ذلك الأمّي والكتاب أو الأصم والمغني ... ودامت الحرية مأساة من زاوية اخرى وهي أنه بعد اتساع الفهم النظري لمسألة الحرية وانجذاب عدد متزايد من المثقفين الى شعاراتها واهدافها ونتائجها كثرت الخيبات والأحباطات في آمال المؤمنين بها لضعف القاعدة الجماهيرية وضيق نطاقها المشارك في لعبة الحرية وقد مر بيان سبب هذا الضعف والضيق بفقدان الارتباط بين المعيشة وشعارات الحرية المرفوعة حديثاً في العالم الثالث . ومن شأن الخيبة في العادة ان تهبط بالهمم وتبث اليأس وتغرى بالتقاعد وقد صاحب هذه الخيبة شيءٌ آخر ألعن منها وهي تسرب الانتهازيين الى هذه

الحلبة الجديدة المنفتحة على احتمالات الربح والخسارة فسلكوا فيها اضمن الطرق الى المكسب بالتزام جانب الحكام المستبينين بالحقوق والواجبات وبقية الأعمدة المعنوية للمجتمع ولربما حدث في البلد الواحد ان تشكلت جملة احزاب مزيفة لاتستند على غير دعم السلطة لاباطيلهم واخفق فيه الحزب الوحيد الذي كان يملك ، في الاقل ، الأيمان والرؤية النظرية لقضايا الحرية . وانفتحت زاوية واسعة لمأساة العالم الثالث في تجربته مع الحرية ماكانت تخطر على بال روادها وذلك بسبب اخفاق اللبرالية أن تنجح حيث لايوجد واقع يمكن ان ينجح فيه أسلوب متطور متقدم في انظمة الحكم فقد انصرفت النية لدى قادة الجيش في اغلب البلدان الى اتخاذ الانقلاب العسكري وسيلة للتغيير حيث فشلت بنظرهم جهود المدنيين . وانه لمن البديهي ان يعجز الأنقلاب العسكري في صدد تقديم الحياة الى امام فانه اذا كان البلد في زاده الحضاري اضعف من ان يقدم نفسه بارشاد اولاده المدنيين الأكثر تهيؤا للاضطلاع بمسؤوليات التوجيه فهو يكون معطلا بالمرة بعد هيمنة رجل عسكري هيأته تربيته لغير البناء الاجتماعي ولغير التوجيه السياسي ولغير التجارة والزراعة وكري الأنهر ومعامل الألبان .. لقد قل في العالم الثالث مدنيّون حصلوا على رؤية شبه واضحة لمشاكل العصر عموما ومشاكل بلدهم خصوصا فكيف يكون حاله بعد ازاحة هذه القلة القليلة من مواقع التوجيه ونصب اناس لا رؤية لهم مطلقاً في قيادة السفينة . لقد كان من امر تفشي الانقلابات أن احسن نتائجها في البلدان المنقلبة هي أن تُراوح حضاريا في مكانها بلا تقدم على الأطلاق وقد ثبت ان ذلك من رابع المستحيلات فالثبات في مركز السيطرة بلا تقدم ولا شبع ولا أمان لن يتم على الوجه السليم الذي يمكن تسطيره في الورق بل لابد من القمع والارهاب بديلاً عن الحكم المدني اي انه لابد من تجميد التأريخ كي يستطيع عيدي أمين او غيره من مخاريق الانقلابات ان يستمر في الألوهية فانه بغير هذه الألوهية سيقضى عليه غيره من الطامعين المهووسين أو يثور الناس من حوله أو يقع له ما لا يحضرني من احتمالات

الزوال . والمأساة على اي حال اكبر كثيرا وكثيرا جدا من ان يحاط بها في كتابة عاجلة مختصرة ذلك أن صور القبح والظلام والنكال والخسار والبوار أشوه من اية صورة مشوهة تعبر في خيال المتخيل وأن مقدار الهبوط الحاصل والتقدم المضيع خلال عهود الظلام هذه أفدح من ان يحتمله الضمير لولا تعوده الاضطراري على احتمال ما لا يحتمل ! ولربما صح القول بأن اعظم الخسران يتمثل في نتيجة وبيلة واحدة من نتائج دوام هاتيك الأحوال ذلك ان الشباب الذي يولد وينشأ ويكبر في ظل الانقلابات ينسى تماماً ان هنالك حياة آمنة شريفة كريمة خارج الامكانات المتاحة في القفص الذي يدجن فيه ويجهل تماماً ان في الأمكان الأحتفاظ بالكرامة وبالخبز وبالأختيار معاً على وجه غير الوجه الذي اعتاده وانساه ماذا يعني الاختيار والكرامة .. هذه المحنة الوبيلة الفتاكة من تجربة العالم الثالث مع الحرية من الفوازير التي (لست ادرى ولا المنجم يدري) اين مفتاح حلها فهو مكتنف بمستحيلات كثيرة متداخلة متفاصلة في العمق وفي المدى فالجماهير العريضة التي هي صاحبة المصلحة في الحرية والعدالة والامان لم تتمثل حتى يومي هذا كيف تلتقي مصالحها عضوياً مع انتخابات وصحف واحزاب تملكها وتمارسها أناس ليسوا من السوق ولا من الحقل أو المعمل ويعبرون عن ذواتهم واهدافهم بلغة غير مفهومة وبأساليب بعيدة في الظاهر عن ان تكون على اية قربى مع لقمة العيش فالسياسة لم تزل ترفاً تمارسه اقلية مثقفة ولم تتغلغل في شرائح المجتمع وانسجته الداخلية لاسباب مرّ ذكر بعضها . ولكون السياسة ترفاً فهي بطبيعة ترفيتها تخرج عن نطاق أحكام المصالح الحقيقية في المجتمع وتبقى عرضة للمزاج والاجتهاد والموازنات وتحتمل أن تنشأ حول فكرة واحدة أو مصلحة واحدة جملة احزاب وتنظيمات تدوم على المهارشة والاحتكاك وما هو أشد فيكون في امكان طائفة دينية تؤمن بأن الكعبين ضمن القدمين في غسل الوضوء أن تديم عداءها لطائفة أخرى تؤمن بخلافه أو ان تكيل جماعة سياسية من البرجوازية الصغيرة كل تهم الارض لجماعة أخرى من البرجوازية المتوسطة تلتقي مع الاولى في

المفاهيم والشعارات وذلك بسبب اختلاف المنتمي الطبقي ! ! ولربما آمنت طائفة بالشرق واخرى بالوسط وثالثة بالغرب ورابعة بالفراغ فشحذت اسلحتها ونظمت صفوفها للجدال والحبال والنصال على مشهد من الجماهير العريضة التي لاتفهم شيئا من الكرنفال الدامي المقام في بيتها . وما يدريني فلعل ناسا من الناس تفرقوا واختلفوا واحتربوا حتى لايقال انهم متفقون .. والواقع الكسيح الذي نعيشه في قدرته ان يلد صنوفاً لاحصر لها من الوان الخلاف ماخطرت قط ببال أحد من العباقرة فالمأساة تلف وجود العالم الثالث في كل جزء منه على السطح وفي الداخل وقدّر لنفسك ماعسى ان تكون نتيجة التقاء اواخر القرن العشرين في حضارة العصر مع هرآآت الأعصر الخوالي المستحكمة المستفحلة في أكناف العالم الثالث مع تزايد السكان وتفاقم الحاجات وتداخل الفلسفات وصراع السياسات وتنافس المصالح الكبرى والوسطى على حين خلت ساحته او كاد ان تخلو من شيء اسمه (الشعب) بمفهومه الصحيح الذي يعني جماعة من البشر مجتمعين في وطن واحد ، تحترم واجباتها وتصون حقوقها فالشعب ليس شرذمة عددها عشرون او مليون أو مليار بلا مواصفات فالقطيع من الغنم والبقر له عدد وله شعور بالجوع وميل الى الجنس وخوف من الموت وحب للحياة ولكنه ليس شعبا بل قطيع عاجز عن حل اي من مشاكله بالتدبير الحصيف وجدير به وبسطحيته ان يفعل بنفسه في الازمات مايفعله لبنان وحده أو ليبيا وتشاد مجتمعين وما قد فعله الرفاق في عدن ورحم الله سارق الاكفان القديم وانا لله وانا اليه راجعون ولاحول ولاقوة إلاّ به ..

المأساة تطحن وتظل تطحن وتطحن بزخم يتعاظم مع الزمن وما من بصيص أمل مهما يكن خافتا يبشر ببداية للخلاص من المحنة مع ان البداية قد تكون بعيدة من النهاية بعداً كافياً لقتل الاستبشار بها .

منذ تسع سنين قلت في محاورة اخوية مع مسؤول كبير اني مافتئت أنصح الفتيان والفتيات ممن يبلغهم صوتي على نطاق الشرق الاوسط وما والاه ان يمتنعوا عن الزواج في بلدانهم لان نسلهم سيكون حطب اللهيب الظاهر والمحتمل في عالمنا فليها جروا كالعصفور واللقلق الى حيث يتوفر الغذاء والماء ولا يكون صيد الطيور مباحاً على مدار السنة ويتزاوجوا فيحضنوا بيضهم ثم يفرحوا بكتاكيتهم أحياءً تزق لا أشلاء تمزق ..

على اي حال وبعيدا من العواطف ومن السوداوية ومن التفاؤل العبيط اقول ان كثيراً من دول العالم الثالث لا تملك في ذاتها مقومات الدولة ولكن وجودها وسط شبكة من الدول الاخرى فرض عليها الاستمرار لان العصر الحديث لا يحتمل الفراغ السياسي في مساحات واسعة من الارض لارتباط مصالح كثيرة بوجودها فهي تشبه شجرة في غابة اذا قطعتها بالمنشار لم تستطع السقوط لأنها محاطة باشجار قائمة من حولها تقيمها وتديمها واقفة فيا لتفاهة الحاكم الذي يصول ويتعفرت على شعبه وينفش ريشه مختالا كالطاووس وليس شأنه اكثر من شأن المتطفل على موائد الآخرين من حيث ان وجوده متعلق بوجود غيره . انك اذا استطعت ان تنقل احدى هاتيك الدول بأرضها ومائها وانسانها وحيوانها ونباتها وما تحت ثراها من الكنوز الى المريخ وتركتها هنالك لشأنها لما استمرت دولة ذات حكومة شهرا واحدا يصبح بعدها حاكمها جلادا وجنودها قطاع طرق ورعاياها حمرا مستنفرة فرت من قسورة فاذا تراخي بها الزمن بضعة أشهر قضت ليلها في الظلام لانها لن تستطيع اشعال قنديل واحد حتى ولو كانت من دول النفط لقصر باعها عن استخراجه وتكريره ..

مفتاح الحل لمآسي العالم الثالث ضايع الا ان يكون الدوام على هدم الذات مستنفداً للقدرة على النحر والانتحار في خاتمة المطاف وهو حل رأيت مثله في فلم سينمي منذ ربع قرن اذ جاء مدع مشعوذ ليوقف نزيف مجروح في رأسه فكواه بالحديد المحمى أطلق منه الجريح صيحة هائلة

همدت بعدها حركته حتى ظن الكل انه قد مات فقال المشعوذ يسلي نفسه والآخرين : صحيح انه قد مات ولكني قد اوقفت نزيفه .. والمشهود في عالمنا الثالث ان النزيف يدوم ما دامت في العروق قطرات من دم . على ان غلبة لفظ الدم في هذه السطور لا ينبغي لها ان تحجب حقيقة المأساة من أنها حضارة وثقافة واقتصاد وأمان ونمو وما في حكم هذه الأمور وإنك ترى كيف ان (الحرية) وما في معناها من الحقوق الاجتماعية صارت مدار التذابح و التناحر وهدر الكرامة والقيم في عالمنا مع انها لم تكن في يوم من الايام قبل اتصاله بمصدر هذه المفاهيم موضع اشكال أو نزاع أو مباحثة فالحرية لم تكن قط موضوعاً قائماً بذاته تبنى عليه فلسفة للسياسة والحكم في العالم الثالث كما بينت . فاذا كان لابد من مثال يقرب الصورة الى الاذهان فلنا في الاسلام اخوان الصفاء والمعتزلة بوصفهما اقرب الى الفكر منهما الى التمرد او الوقوف بوجه السلطة الشرعية فالناظر فيهما يجد نزوعاً الى استعمال العقل والمنطق و وضوح الرؤية في الثقافة والعقيدة السائدة عصرئذ أما ان يكون فيهما دعوة الناس الى التشبث بمبادئ عامة واسس فلسفية لبناء حرية الاختيار لحكومة تقوم بالعدل من حيث هو عدل خارج مفاهيم العدل المطروحة في مصادر العقيدة وان يكون لهم الخيار في تغيير قواعد القانون السائد والشعائر المقدسة فذلك خيال من الوهم . ولك ان تأخذ القرمطية مثالاً فهي ان كانت ترفض الحكم العباسي فهي أشد رفضاً لاي فكر أو دين يدعو لغير مذهبهم . ولا يخرج الخوارج والشراة عموماً من نطاق رفض الأختيار فيما هو ابتعاد عن مذهبهم . فاذا صعدت الى المزدكية وجدتها أشد العقائد عداءً لسواها وأبعدها من أن تسمح للعقل والفكر بالدعوة الى حرية الاختيار ورفض ما هو مكروه ونصرف النظر هنا عن نقد المزدكية في دعوتها البدائية الفجة الى شيوع الملكية وكفاها خللا واخلالا انها اعتبرت المرأة ملكاً مشاعاً لكل الرجال . والحرية في الاديان عموماً كانت و ستبقى مرتبطة بالفرص المتاحة في احكامها سواء من حيث الاستمتاع بما هو حلال من متع الحياة أو ما هو ممارسة لحقوق محددة فيها مؤطرة بنصوص

لا يمكن تجاوزها الى غيرها من باب الترخص والتوسع في التأويل . وليس غريباً ان يحصل الاحتكاك بين السلفيين وبين اي جماعة دنيوية او دينية تبتدع سلوكاً غير مصرح به في مصادر الشريعة فالحرية هي الالتزام بما فرضه أو أحله البارئ ولا يمكن ان يكون لها معنى آخر .

على اي حال تتداخل امور وأسباب كثيرة في نسج حالة فريدة حول دور الحرية في ماجريات العالم الثالث ما بين تأريخية وراهنةوداخلية وخارجية تستقطر في صيغة ذات شقين اولهما ان الحرية في العالم الثالث بمفهومها العصري لا جذر لها في الماضي فهي طارئة عليه كالسيارة والطيارة والكومبيوتر. ثانيهما انها لا تملك حتى اليوم في هاتيك البلدان المقومات الضرورية لصيرورة الحرية جزءً مكوناً من تكوينها الثقافي فقد بدأت فكرةً غامضة منقطعة الجذور بالواقع فتسربت الى عقول الخاصة حتى اذا شغلت حيزاً من وجدان الطبقة المثقفة صاحبتها الاحباطات لهشاشة القاعدة التي طفت عليها الأفكار الحرة . فلما فاضت عليها افرازات الغرب من حضارية وسياسية واقتصادية وثقافية في اعقاب الحربين العظميين رزحت تحتها هي وكوادرها الهزيلة العاجزة لتخلي الميدان أمام الأنقلابات على ما مر بيانه وليس ما قلته الا تلخيصاً بالغ القصور للحكاية من بابها الى محرابها فهو لا يكفي لأقناع اى مهووس شرقيّ ولغت يده في دم بني قومه حتى الكتف . ان ما فعله وما سيفعله أحقر من اي وصف بالغ قرارات الحقارة يوصف به وأن نعلاً يرميه اللص أكرم من قفة رأسه ...

اني اجهد الفكر والخيال وامزجهما بشيء من التفاؤل في تصور وسيلة أرضية تجعل عالمنا الثالث يمر بدور استحالة من سكان غابة الى مواطنين على خارطة العصر فلا اتوهم غير وهمين : أولهما شيء ليس مستحيلا في ذاته ولكنه متعذر لارتباطه بالمتعذر وهو أن يشتد عود حضارتنا ويزداد زخمها بما فيه الكفاية لجعل القتلة والحرامية واعداء الحياة من حملة شعارات العنف واسلحة الفتك جعلهم عاجزين عن التجرؤ على الظهور إلى العلن ان لم يكن بسبب اهتدائهم الى جمال

البناء والأمان فبسبب ذعرهم من التهتك والتبذل وسقوط الاعتبار وذهاب الحياء بأي عمل مناف لشروط الانسانية بدة بعبوس الوجه كعلامة فارقة على نقص التربية وكمون الوحشية في الدخيلة . والوسيلة الثانية هي حصول الايمان لدى طلائع النضال . من كان منهم في الحكم ومن كان يتربص بالحكم وراء زناد البندقية . على وجه من الوجوه التي يحصل بها اي شيء أن ترك العنف و الركون الى الوسائل السلمية المتحضرة لحل المشاكل هو الاحتمال الوحيد الذي يفيد وينقذ ويريح ويبني فلكي يولد طفل واحد سوى يجب ان يسبقه زواج و يمضي عليه تسعة أشهر ثم تمضي عشرون وثلاثون سنة حتى يصل الطفل طور الانتاج والمشاركة في التنمية ولا يكون ذلك الا بالدرس والتمرين والتجريب فاذا استعجلت الطفل في اي مرحلة من مراحل نموه ونشوئه قتلته أو قتلت نضوجه ونبوغه . ان الكنافة تنقلب زقنبوتا بمصاحبة المارشات العسكرية والاناشيد الملتهبة . والنفس تنسد عن مباهج الحياة اذا زاحمتها الشعارات والكتابات والمسيرات المثيرة . والحياة نفسها تصبح محنة في ظل العرقي والضبط العسكري لا يزدهر بيدرك ابدا ابدا اذا تركت الكراب أو الحصاد أو الدراسة كلما امتلأ جوفك بالحماس الذي يطلب تفريغه عن طريق الهتافات المدوية المجلجلة المزلزلة ..

ان الحياة الاجتماعية بخلاف ظواهر الطبيعة تطلب الهدوء والتريث والتدرج والتجميع والتأليف وهي تأتلف مع الطبيعة وتسايرها في كل أمر أساسه النمو والوفرة فكلتاهما تتريث قرابة سنة كاملة حتى يُحصد الزرع ويُقطف الثمر فاذا كانت الظواهر عنيفة مدمرة حاولت الاجتماعيات بكل علومها وفنونها ووسائلها أن تشكمها أو تهدئ من حدتها أو تتجنب ويلاتها . ان هذه حقيقة لا خلاف عليها ولا نظن احدا من المغالين في العنف يبلغ به الغباء حد انكارها ولكنه يتحايل ويدور حولها ويتأول فيها حتى يتأتى له ان يقيم من نفسه حاميا للحرية و الديمقراطية ورسولا للسلم والصداقة بين الشعوب . والظاهر على أمر المنشغلين بالديمقراطية والسلام ان الانسان السلمي

الديمقراطي الحقيقي لا يكاد ينطق بكلمة خطابية في هذه المعاني ولكن عدو الأنسانية المتظاهر بالمسالمة يملأ بلده ووسائل اعلامه وشعاراته في المسيرات الجماهيرية بكلمات السلام والصداقة وصور الحمام والطفل الوديع وتأتي الصفة الثورية المصطنعة لتقيم حول الثوري سياجا مقدساً من الضمانات ضد النقد والتشكيك ، والكلام في كل ذلك مؤلم مؤس ومن الهموم الكبيرة التي يعانيها المكترث بحقائق الاشياء وبمصير البلاد والعباد : ما من صفحة ينشرها الباحث في شأن من شؤون المناضل الثوري الممتلئ عنفواناً وجيشاناً تخلو من الدليل القاطع على بطلان الأمل في ان يرعوى المتشدد الحدي ويضع سلاحه ويقلم مخالبه ليسبح بآلاء السلام ويقدس بركات الأمان فيجلس الى منضدة المفاوضة والمفاهمة والمسالمة ليريح نفسه ويرتاح منه الناس . وانقطع الأمل قبل ذلك من أن يكف الحاكم بأمره في عالمنا البائس هذا عن وسائل البطش والأكراه . وخلا قبلها جراب التوقعات من أن تستطيع شعوبه مجرد التفكير الجدي في الخلاص وكيف تخلص اناس من الظالم الكبير اذا كانت الغالبية الساحقة من أفرادها تظلم غيرها على قدر الطاقة والأمكان بل انها تصبح عوناً على الظلم بشيء من الترغيب أو الترهيب !

وماذا تريد بعد ؟ هل من مزيد ؟

ان في جراب الحاوي من ماجريات العالم الثالث ضروبا من خفة اليد وخداع العين على اكبر حظ من الروعة والمهارة فلقد تخلفت لعبة الانقلابات العسكرية في مدى التخريب عن لعبة (الانقلابات المدنية) على أديم أوطان متعددة وكانت ضحاياها من البشر الأبرياء وغير الأبرياء اضعاف أضعافها في العسكريات و اتسعت دائرة البلاء في تصادمات المدنيين «انصاف المتحضرين» على قدر زيادة عددهم من جهة وفقدان الضبط بين صفوفهم من جهة أخرى وتعدد مدارسهم الفكرية من جهة ثالثة .. عشرون الفا من القتلى وأضعافهم من الجرحى وما لا يحصى من الهاربين والشاردين في ركن بائس متطرف من جزيرة العرب فقط .. والمؤشرات التي

قلما أخطأت في التنبؤ بالكوارث تومئ الى احوال ستسود في عالمنا هذا يحتار فيها الفهم : هل هي بنت السياسة أم بنت النكتة ام بنت العبث ام بنت لا شيء يحسب حسابه على الاطلاق . ورب مناضل شحذ سكينه للتغيير الى الأحسن سخر من كلامي هذا وحمله على محمل التشاؤم المفرط والاستكانة الى اليأس الذي هو احدى الراحتين وقد يجدني جاحداً لجهده الصادق في طلب التقويم والتعديل فأقول له ولجميع من هم على شاكلته في عالمنا الثالث اني اخاف احتمال وصولهم الى الحكم بمثل اليقين الذي بنيت عليه خوفي وكراهيتي وتقززي من حكم عيدي امين و بوكاسا وستالين وهتلر وكل الطغاة العتاة القساة على مدى التأريخ فليس حملة السكاكين والبنادق من مناضلي عالمنا في خنادق المقاومة الا عفاريت صغاراً ستأخذ دورها في ركوب المتون وكسر الاعناق وقطع الاعراق وحرق الورود والأوراق : انهم قد يكونون مدافعين عن أنبل القضايا ولكن بروح الذئب الطامع في القطيع وقد يكونون أبسل الناس في الجود بالروح ولكن في تربص قاطع الطريق بالقافلة . انهم في الجملة صور كاميرا سالبة للمستبدين الذين استأثروا بالحكم فاذا صارت صوراً موجبة بدت على حقيقتها المكفهرة في دست الحكم ذلك أن أحسنهم اخلاقا وأوطأهم أكنافا وأقربهم الى المرحمة تناهوا من خلال ايمانهم المطلق بالذات الى الادانة المطلقة لذوات الآخرين فليس في قاموسهم السياسي حيز للحرية والأختيار الا أن تكون حرية تأليههم واختيار تقديسهم والتسليم بما يؤمنون .

الديمقراطية نبات غريب عن تراب العالم الثالث لم يرسخ له جذر الا كما يرسخ للأشنات جذر على بعض السطوح هنا وهنا لا يورق ولا يثمر ذلك ان التراب الذي ينمو فيه جذر الديمقراطية هو دخيلة النفوس ورؤية العقول وأنس الطباع وشبكة الاجتماعيات والخلفية الحضارية ، فالأوطان التي تفتقد هذه التقاوي لن تؤوى الديمقراطية ولو على سبيل الاستضافة لبعض الوقت . انك مهما حاولت أن تنظر الى عالمنا من وراء زجاج قوس القزح فلن يطالعك الا

منظرٌ اسودٌ بعضه بالمحروق واحمرٌ بعضه بالمسفوك . فاذا تسنى لقوة وهمك ان تجد بصيصا يضئ بالتبشير فاني لم أجد شيئا من ثمار حسن التدبير وحكم المنطق وداعيه المصلحة وراحمه المعدلة وانما وجدت المصير موكولا الى ذاته في تدحرجه نحو المستقبل بلا ضابط أو دليل فنحن فاقدون ما تملكه الأرض في انشدادها بقوة الجذب الى الدوران المنظم حول الشمس فندور في الفراغ أو نمرق كالسهم المنطلق الى غير هدف .

دنيانا جرح مفتوح ينزُّ ، لا طبيب ولا علاج وأنما قدرةُ الجسم الحي على الشفاء من طبيعة تكوينه ، واحتمال الشفاء والفناء مقسوم بينهما بنسبة خمسين الى خمسين ..